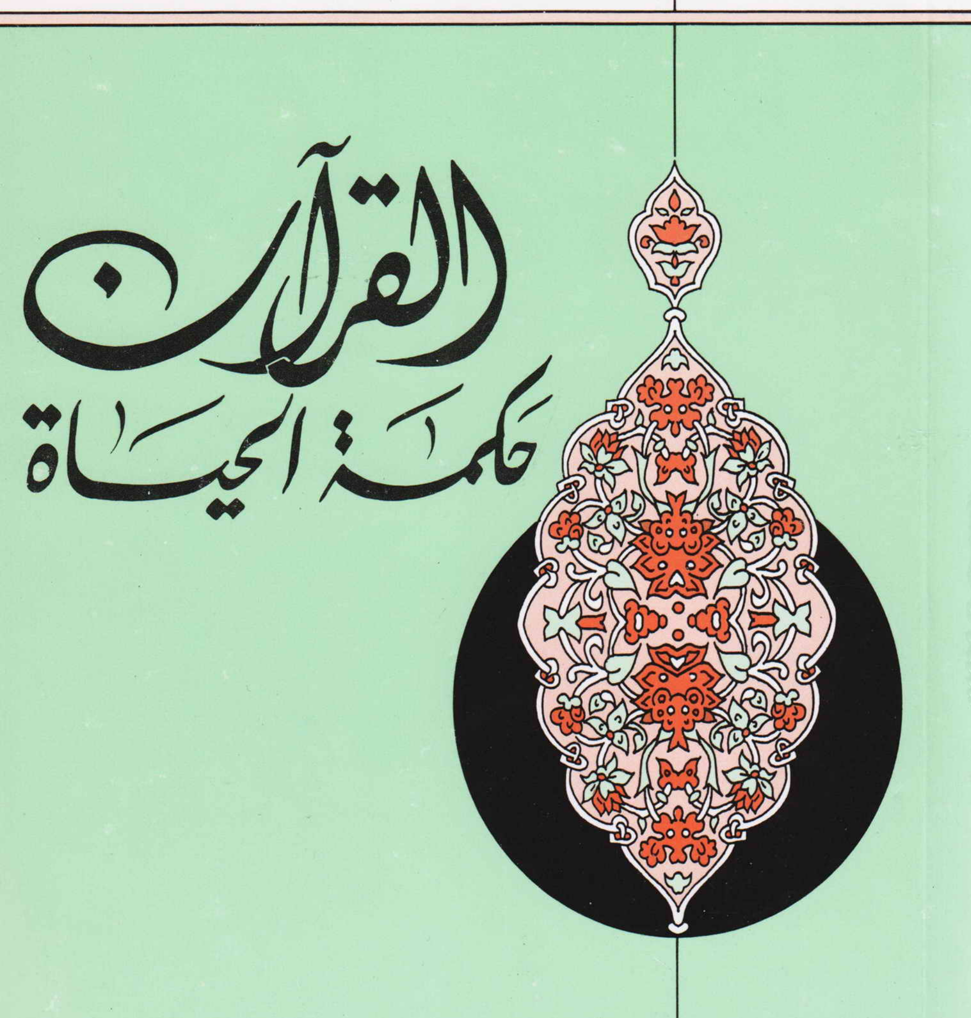
آية الله السيد محمد تقي المدرسي

القرآن حكمة الحياة



دار الكلمة الطيبة

آية الله السيد محمد تقي المدرسي

القرآن حكمة الحياة



دار الكلمة الطيبة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين.

لله سبحانه نوران؛ نور يتجلى في كتابه، ونور يفيض على قلب عباده الصالحين، فالقرآن الكريم نور الله المنبسط في كلمات.. وقلب المؤمن يعمر بنور اليقين الذي يفيض مباشرة من عند الله عليه.

وحين يلتقي النوران يتكامل العرفان وهناك يشهد المؤمن حقائق الحق، كما لو أنها لؤلؤة شفافة فوق كفه يقلبها كيف يشاء.

والتدبر في آيات الله عند الذين اوتوا نور اليقين، هو ميعاد لقاء نور القلب بنور الرب.

وعندما ينظر المؤمن بنور الله في آيات الذكر، فإن حدود المعرفة تصبح مترامية، وانبعاثاً من نقطة مركزه هي معرفة الله بالوحدانية وانتهاءً بكل ذرة في هذا العالم الفسيح يتشكل عرفان المؤمن شلالاً متدفقاً من نور العلم..

ولكي يوفر المؤمن في ذاته وسائل الاتصال بضياء القرآن فإن عليه التذكر بالبصائر التالية:

أولاً: ان يجتهد أبداً ليرتفع الى درجة الانتفاع بالقرآن لا أن يتمنى هبوط كتاب الله (حاشا لله) الى مستواه. فإن لم تهتد بالقرآن فلا تفسره حسب مستوى فهمك، ولا تضعه في حدود معارفك، ولا تقنط من فهمه وأبق في

توتر الباحث وإنتفاضة الطالب للحق حتى يفتح الله عليك نافذة على حقائق كتابه .

ثانياً : طهّر قلبك من حجاب الخوف من معرفة الحق والتهرب من مستولياته ، لأن القلب الخائن لا يستريح الى الحق ، وإنما المُسلِّم له أنى كان هو الذي يفقهه ويبلغ نوره .

ثالثاً : التسليم للحق الذي يعرفه الانسان سلّم الى معرفة الحق الذي يجهله ولذلك فإن الأجتهاد في تنفيذ وصايا القرآن وسيلة لمعرفة المزيد من حقائقه .

رابعاً : حين تقرء القرآن فرِّغ قلبك من أية فكرة او وسوسة وتوجه الى نور الكتاب مباشرةً ، فسوف تجد من فيضه موجات متلاحقة .

والكتاب الذي بين أيدينا أحاديث في التدبر في القرآن الحكيم صيغت في صورة كتاب يقدم للقارىء الكريم عسى الله ان ينفع به من القى السمع وهو شهيد .

واسأل الله المنان ان يتفضل علينا بوعي حقائق كتابه واستيعاب بصائر دينه إنّه ولي التوفيق .

محمد تقي المدرسي

٥/شعبان/١٤١٤هـ

في رحاب القرآن

(١) كيف نعيش في اجواء القرآن
(٢) كيف نتعظ بالقرآن
(٣) الكفر والشرك من وجهة النظر القرآنية
(٤) كيف نحول القرآن الى سلاح فعال

كيف نعيش في اجواء القرآن

من المؤكد ان نهم البطن، وعطش الكبد لا يضران بالانسان بقدر ما يضره نهم الروح وعطش العقل وحاجة الضمير، فأرواحنا تبحث دوما عن برد اليقين، وعقولنا ظمأى الى العلم والمعرفة، ونفوسنا بحاجة الى السكينة والاطمئنان.

ان القرآن الكريم هو مصدر هذه السكينة، وهو الكفيل بان يروي ظمأنا وتعطشنا الى العلم والمعرفة، وللاسف فاننا نعيش على شاطىء هذا الكتاب العظيم، وفي وسط رياضه ولكن البعد بيننا وبينه كالبعد بين الارض والسماء، وانها لمأساة كبرى علينا ان نبحث عن حل للقضاء عليها قبل فوات الاوان، فنحن نعيش كل يوم الاف القضايا التي تضغط علينا باتجاه الحل ولكننا لا نعرف لها حلا، وضمائرنا ملتاعة تبحث عن وجدان ديني يزيل اضطراب قلوبنا ولا نجد هذا الوجدان، فننهزم امام شهواتنا ونعلم اننا قد انهزمنا، وانه كان

من المفروض ان لا ننهزم، ونعلم ان البطولة هي في مصارعة النفس، وهكذا نظل ندور في هذه الدائرة المغلقة.

لنكون قرآنيين:

ان الذي يعطينا القوة هو القرآن، والذي يغمرنا بالسكينة هو القرآن، فلماذا بيننا وبين هذا الكتاب هذه المسافة الطويلة، وكيف يمكن ان نختصر هذه المسافة لنصل الى حقيقة فهمه؟

هذا هو السؤال العريض الذي ينبغي ان ندرسه بعمق في حياتنا، انه يتمثل في كيفية وصول اكفنا الى بحر القرآن لنغترف منه غرفة تشربها عقولنا الظامئة، وللاجابة عليه نقول ان علينا ان نأخذ بنظر الاعتبار الملاحظات التالية:

١ ــ ان لا يكون هدفنا من التدبر في القرآن الاستفادة الجزئية، فالذي يتخذ من القرآن وسيلة لتعلم بعض القضايا الجانبية التي قد تنفعه وقد لا تنفعه انما هو انسان سطحي لان القرآن الكريم بإمكانه ان يقدم للانسان ما هو اعظم من ذلك واكثر قيمة، فالذين يتخذون من القرآن وسيلة لتزيين مكتباتهم، او كحرز لهم، او لاختبار اصواتهم انما هو في الحقيقة كمثل المرضى الذين يكتفون بالنظر الى الطبيب دون ان يسألوه علاج امراضهم، فهم بحاجة الى رؤى القرآن في مواقفهم الحياتية المختلفة، وبحاجة الى يقين القرآن الذي يثلج صدورهم، ويزيد ارادتهم عزيمة، وبصيرتهم نفاذا.

وبناء على ذلك عليك ان تحذر من التدبر في القرآن لتكتشف سبب نزول هذه الاية الى درجة ان البعض تراهم وهم يقرؤون التفاسير يتغنون بأشعار الجاهليين، او يحاولون البحث الاستطرادي في قضايا جانبية اخرى، في حين انهم لا يطرحون قضاياهم التي يعيشونها، فينهمكون في قضايا لا طائل من ورائها، فلنحذر ان نكون من امثالهم، ولنتدبر في آيات القرآن لنستلهم منها الدروس والعبر والبصائر لحياتنا ،ولا يكن تدبرنا للقرآن في وقت خاص، وحسب المنهاج الذي نرسمه لانفسنا، بل علينا ان ندع هذه الفرصة مفتوحة امامنا، فكلما احتجنا الى القرآن انطلقنا اليه لنستخرج منه التعاليم التي نحتاج اليها.

٢ ــ نحن لا نعلم متى نواجه موقفا صعبا علينا ان نعالجه، فالاختبارات الصعبة تنزل على الانسان كما تنقض عليه الصاعقة، فهي تواجهنا في غفلة من الزمن، فهل اعددنا لها ذخيرة من الارادة والعقل والايمان؟ وكيف نحصل على هذه الذخيرة؟، ان مصدر الحصول عليها يكمن في العيش في اجواء القرآن، وذلك من خلال حفظ آياته، والتدبر فيها، صحيح ان العمل بآيات القرآن افضل من حفظها، وصحيح ان من يحفظ القرآن ولا يعمل به هو اسوء ممن لا يعرف آيات القرآن، ولكن حفظ القرآن هو وسيلة للتدبر في آياته، والعمل به، فالحفظ يجعل الايات القرآنية تتفاعل مع نفسك، وتنسجم معها، ففي وقت الشدة من الممكن ان تتذكر آية، وفي

موقف حاسم قد تنتبه الى آية قرآنية .

٣ ــ وانني اوصي ان يهتم الجميع بشكل جدي بعلمية حفظ القرآن ، فنحن نحتاج الى هذه الايات ، وفي هذا المجال يروي لنا التأريخ رواية طريفة عن فضة الجارية التي كانت تعيش في بيت فاطمة الزهراء(ع) ، فقد كانت هذه المرأة تحفظ القرآن حفظا جعلها لا تنطق في حياتها التي امتدت لاربعين عاما الا بآيات القرآن ، فاذا سألت عن اسماء ابنائها قرأت آيات ترد فيها اسماء انبياء تشابه اسماء اولادها فيعرف المستمع من خلال الايات ان اسماء اولادها كذا وكذا ، واذا سألت عن المكان الذي تذهب اليه ، قرأت آية الحج ... وهكذا فانها كانت لا تتحدث في اي جانب من جوانب حياتها الا بآيات القرآن .

وبالطبع فاننا قد لا نستطيع ان نصل الى مستواها ، فلتكن احاديثنا ــ على الاقل ــ ممزوجة بآيات القرآن لكي تكون افكارنا متفاعلة مع بصائر القرآن من خلال حفظ الايات القرآنية ، فلنحاول ونحن متوجهون الى اعمالنا ، او عائدون الى بيوتنا ، او في اي وقت اخر، ان نقرأ القرآن ونحفظ آياته ، وعندما تواجهنا مسألة دينية او غيرها لا نعرف حلها علينا قبل ان نسأل احدا ، وقبل ان نبحث عن جواب لاشكالنا في بطون الكتب ، ان نبحث عن الحل في آيات القرآن الكريم .

التفؤل بالقرآن كمصداق للتفاعل معه :

ومن جملة مصاديق العيش في اجوء القرآن الكريم ظاهرة التفؤل به او ما يسمى بـ«الاستخارة» ، ومعناها ان تصفي نيتك ثم تضرب على عرض القرآن وتفتح صفحاته ثم تنظر الاية التي تطالعك في اول الصفحة ، واذا بك ترى الاية مناسبة او قريبة مما تريد ان تعرفه بشكل غريب ، فان لم تكن هذه الاية قريبة الى موضوعك فان الله ـ تعالى ـ يعطيك فهما لها ، وهذه الظاهرة تحدث كثيرا .

وبالطبع فإننا لا ندعو الى التفؤل بالقرآن في كل قضية ، وفي كل مناسبة او غير مناسبة ، ولكنني ادعو الى استلهام القرآن الكريم في قضايانا المختلفة ، وفي المعاضل التي تواجهنا ، فاننا لابد ان نقع على الاية التي تحل لنا هذه القضايا والمشاكل وكأنها نزلت خصيصا لنا ، لنجرب ذلك وعندئذ سنكتشف اننا من الذين يعيشون العطش الشديد وهم على شّاطىء الانهار العذبة ، ويعيشون الجوع وهم في وسط الحقول الخضراء ، والبساتين المثقلة بانواع الثمار والفاكهة ، فالقرآن هو روضة ولكن الانسان بحاجة الى بطاقة دخول ، وبطاقة الدخول هذه تتمثل في ان نجلس بين يدي القرآن بروح متفتحة ، وعقل واع ، ثم نتلو آياته الكريمة مستوحين منه البصائر لحياتنا ،والانوار التي تضيء جنباتها المظلمة ، والحلول لجميع المشاكل التي تواجهنا .

كيف نتعظ بالقرآن

للقرآن الكريم جانبان ينبغي التوجه اليهما ؛ الاول هو الجانب العلمي والعقلي حيث لابد ان نتبع منهاج التدبر لكي نصل الى معارف القرآن ، والجانب الثاني هو الجانب النفسي والروحي الذي يمثل جانب الا تعاظ والاستفادة الروحية من القرآن الكريم .

حجابان لابد من اختراقهما :

ولكي نعرف هذا المنهج لابد ان نعرف ان بين الانسان وبين القرآن حجابين لابد من اختراقهما :

١ ــ حجاب الهوى النفسي ، حيث يصعب على الانسان ان يصدق ان ما يقوله القرآن يعنيه بصورة خاصة ، فالانسان عادة يقر بأن الموعظة حق ، ولكن ليس له وانما للاخرين .

٢ ــ حجاب كيفية تمثل الحقيقة القرآنية في ذات الانسان ،

فالقرآن مثله كمثل الشمس ، ومثل قلوبنا كغرفة مغلقة ، فكيف نفتح نوافذ هذه الغرفة على اشعة الشمس لكي تشرق عليها ؟

عندما يحدثنا القرآن عن قصص الامم السابقة فانه يبينها كحقائق عامة ، وافكار شاملة ، فكيف احول هذه الحقائق والافكار العامة والشاملة الى قضية تهمني ، وتتصل بي بشكل مباشر ، وبتعبير اخر ؛ كيف اجعل الاية القرآنية تعنيني وتقصدني لكي انتفع بها ؟

هناك قواعد فقهية عامة كقول النبي (ص) : «لا ضرر ولا ضرار» وقوله : «الميسور لا يسقط بالمعسور» ، وهذه قاعدة عامة اطبقها فيما يخصني ، فعلى سبيل المثال اذا جرحت يدي ووضعت عليها مادة عازلة فماذا اصنع في هذه الحالة ان اردت الوضوء ؟ هنا اعود الى القاعدة العامة فاطبقها على وضعي الخاص فامسح على المادة العازلة لان الاصل ان الله ــ تعالى ــ لم يجعل علينا في الدين من حرج ، وهكذا علي ان احول القانون العام الى حقيقة خاصة ؛ اي ان ابحث له عن مصداق يتصل بي .

وهكذا الحال بالنسبة الى السنن الالهية في القرآن الكريم كسنة التكذيب بعد الانذار ، فاذا كان الانذار واضحا وجاء التكذيب بعده صريحا فان العذاب واقع لا محالة ، كما حدث بالنسبة الى قوم ثمود حيث بعث الله ــ تعالى ــ لهم الناقة مبصرة فلما كذبوا بها وعقروها نزل عليهم العذاب ، لان الله اتم الحجة عليهم ؛ اي ان الحجة اصبحت واضحة ولكنهم مع ذلك كفروا بها فجاءهم العذاب ، وهذه سنة

الهية .

ترى كيف نطبق هذه السنة الالهية على انفسنا ؟ يجب علينا ان نطبقها اذا كنا على خطأ ثم جاء من ينذرنا بهذا الخطأ ، وكان المنذر هذا واضحا وصريحا في انذاره ، وفي هذه الحالة علينا اذا ما لم نكف عن خطئنا ان نكون في انتظار العذاب .

القرآن ليس ككل الكتب الاخرى :

ولذلك لا يجوز لنا ان نقرأ القرآن كما نقرأ اي كتاب اخر بل لابد ان نقف عند كل آية منه و نحاول ان نطبقها على انفسنا ، فالقرآن الذي لا تطبقه على نفسك ، ولا تتعظ بآياته لا يمكن ان ينفعك بشيء ، ونعوذ بالله ان نكون ممن تنطبق عليهم الاية التي تقول : **«ولا يزيد الظالمين الا خسارا»** [١] .

فالقرآن شفاء ولكن للمؤمنين ، اما الظالم فلا يزيده الا استكبارا وضلالا ، وقد كان قوم نوح من هذا النمط كما يحدثنا نوح(ع) عنهم قائلا : **«فلم يزدهم دعائي الا فرارا»** [٢] رغم انه قد دعاهم الى الله ــ تعالى ــ ليلا ونهارا .

ومن الامور التي تذكر في سورة نوح الكريمة فكرة ان الجزاء

---

(١) سورة الاسراء /٨٢

(٢) سورة نوح /٦

حق ، وان البعث بعد الموت حق ، فلماذا ينكر الانسان البعث بعد الموت ، هل لدليل عقلي ام لا ؟ الادلة العقلية والفطرية والوجدانية متوافرة على ان الانسان لابد ان يبعث بعد الموت ، ولكن الحالة النفسية عند الانسان تملي عليه ان لا يصدق بالبعث على اعتبار ان هذا التصديق سوف يفرض عليه مجموعة كبيرة من الالتزامات التي لا يريد ان يقيد نفسه بها ، ولنفس هذا السبب فان الانسان ينكر الموت نفسه رغم انه يؤمن به نظريا ، فهل يصدق الواحد منا انه سيموت بالفعل وهو يمتلك عينا تنظر، واذنا تسمع ، ويدا تبطش ، ورجلا تتحرك واعضاء جسمه كلها تعمل وفق المستوى المطلوب ؟، ولكن الحقيقة ان هذا الانسان يمكن ان يموت في اي لحظة لسبب بسيط ، فنحن لا نعرف هل ان اسماءنا مكتوبة غدا ضمن الاحياء ام الاموات ؟

ان الموت هو مجرد لحظة واحدة يمر بها الانسان ليذهب الى عالم لا عودة منه ، عالم لا احد يعرف ما يجري فيه على الانسان ، وبالطبع فاننا نذكر الانسان الميت بالخير او بالشر حسب سيرته ، ولكن كلامنا غير كلام الملائكة ، فهي تمتلك سجلات احصي فيها عدد انفاس الانسان ، وقطرات الماء الذي شربه ، وذرات الطعام الذي اكله ، بل وحتى الهواجس في ذهنه وافكاره ونياته ، فالله ــ تعالى ــ يقيس حتى نية الانسان ، فهو لا يعرف وزن الهواء والضياء والريح فحسب بل انه يعرف ايضا وزن النية والارادة .

ومع كل تلك العبر والمواعظ البالغة فاننا سرعان ما نرجع الى غفلتنا ، فنحن لا نصدق عمليا بالموت رغم انه يمثل حقيقة قريبة منا نعيشها كل يوم كما يقول الشاعر:

واذا حملت الى القبور جنازة فاعلم بانك بعدها محمول

فاذا كنا لا نصدق بالموت الذي نراه كل يوم فهل من المعقول ان نصدق بالبعث الذي لا نراه؟ هذا في حين ان الذي يصدق بالبعث لابد ان يصدق بالموت وكفى بالموت واعظا ، والذي يصدق بالموت سيدرك ان هناك حياة بعد الموت لا تصلح الا للعمل الصالح ، فالمؤمنون الذين يعرفون الموت هم الواعون ، اما غيرهم فانهم لا يمتلكون الوعي لانهم لا يدركون الموت ولا يوقنون به لانهم محجوبون عن فهم هذه الحقيقة ؛ ولانهم لا يستوعبونها ، فمن الصعب على الواحد منا ان يصدق انه سيقع في يوم من الايام بيد ملك الموت ، ثم يحملونه وهو لا يشعر ، ويضعونه في حفرة القبر وهو لا يحس .

وفي مقابل ذلك فان الذي يستوعب الموت ، ويعي هذه الحقيقة المرة فانه سيستوعب الحياة بقدر استيعابه لها ، فيدرك هل ان لهذه الحياة قيمة ام لا ، وعلى سبيل المثال فان نوحا(ع) هذا النبي العظيم الذي عمر في قومه الف سنة الا خمسين عاما ، وقيل انه عاش الفي عام، نزل عليه ملك الموت فرآه قد بنى على نفسه نصف كوخ؛ اي هذا الكوخ كان يظلل نصف جسده في حين ان النصف الاخر كان خارج الكوخ ، فسأله ملك الموت قائلا : يانوح ! لقد منحك الله هذا

العمر الطويل فلماذا لم تبني لنفسك بيتا ؟، فقال نوح : الذي انت وراءه كيف يتخذ لنفسه بيتاً ؟ انك لا تجعل الانسان يفكر في البيت لانك هادم اللذات ومفرق الاحباب ، تنتزع الولد من حضن امه ، فكيف يبني الانسان بيتا وانت موجود ؟

لقد كان نوح (ع) يفهم الحياة ، لقد عاش الفي سنة ولكنه لم يثق بها ، ولم يطمئن اليها ، في حين اننا لا نعرف كيف نعيش سبعين سنة ، ومع هذا ترانا نبني ونجمع ، نحن لا نعرف كم سنبقى ومع ذلك نتشبث بالحياة ، ونتصور انها سوف تستمر معنا ، فالى متى الغفلة ؟، سوف نصحو في ذلك اليوم ولكن دون جدوى ، فتعالوا نستغل الفرصة ، ونحذف الحجب التي تحجبنا عن القرآن الكريم ، هذه الحجب التي تتمثل ــ كما ذكرنا ــ في حجابين رئيسين هما : حجاب هوى النفس ؛ اي عدم التوجه الى الحقائق التي تخصنا ، وحجاب عدم تطبيق القواعد والسنن العامة في القرآن الكريم على واقعنا كأشخاص .

دعوة الى قراءة القرآن من جديد :

فلنقرأ القرآن من جديد ، صحيح ان ما قرأناه من القرآن كان ينفعنا الى مستوى الوصول الى التدين العادي ولكن لنحاول ان نصل الى مستويات اعلى ، فالمستوى العادي يجعلنا نخلط الحلال ببعض الحرام ، ويجعلنا لا نعي المسؤوليات ، والانسان الذي يكون في هذا المستوى سوف يقف طويلا للحساب يوم القيامة .

فتعالوا منذ هذه اللحظة وقبل ان تنعى الينا انفسنا نبدأ بقراءة القرآن قراءة جديدة ، فالايات القرآنية من شأنها ان تصنع انسانا مثل سلمان، وابي ذر، وعمار، وغيرهم من عباقرة التأريخ ، ولنحاول ان نكثر من قراءة سورة نوح ، فالذي يقرأ هذه السورة سيشعر ان في داخله قدرا من الكبر والاستكبار على الحق ، فنحن ايضا عندنا اصرار على الكفر والضلالة والعادات السيئة رغم النصائح والتحذيرات التي توجه الينا ، فنغفل كما فعل قوم نوح الذين يقول عنهم الخالق ــ تعالى ــ على لسان هذا النبي :

«واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا» [١].

وهذه الحالة موجودة عندنا جميعا ، في كثير من الاحيان يتخذ احدنا موقفا ممتعضاً عندما يأمره الاخرون بالمعروف وينهونه عن المنكر، فتراه يبادر الى تكذيبهم قبل ان يتكلموا معه ، افليس هذا السلوك تحديا للقرآن ؟ اذا كنت تتصور ان باستطاعتك ان تتحمل نار جهنم فاحرق اصابعك بالكبريت ولو لمرة واحدة ، فكيف بنار جهنم التى تأن منها الشمس على حرارتها ؟

ان علينا ان نستشعر الخوف والخشوع والوجل عندما نستمع الى آيات القرآن الكريم كما يقول ــ تعالى ــ : **«انما المؤمنون الذين اذا**

---

(١) سورة نوح /٧

ذكـــر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون»[1].

فلنترك جانبا الصفات الاخلاقية الذميمة كالحقد، والحسد، والتباغض، والغيبة، ولنعش اجواء القرآن الكريم، ورحابه التي ترفع النفس الانسانية الى مستويات الطهر والنقاء وذلك من خلال الاتعاظ بآياته، وتطبيق مضامينها على حياتنا العملية لكي نستطيع بذلك تجاوز مرحلة الموت بتفوق ونجاح حيث تكون جنان الله ونعمه التي لا تعد ولا تحصى بانتظارنا.

---

(١) سورة الانفال /٢

الكفر والشرك
من وجهة النظر القرآنية

ان الكلمات القرآنية التي هي محور التشريع الاسلامي ، ومنار البصيرة الرسالية ، ومصنع الايمان الخالص يجب ان تفسر وفق السياق القرآني ذاته وما نستنبطه منه ، ومن ابرز الكلمات التي تعتبر مفتاحاً لفهم القرآن ، ومدخلا لفهم الحياة هي الكلمات التي تؤكد عليها آيات القرآن الكريم ، وتجعلها محورا لسائر الافكار والتشريعات ، ومنها كلمة الشرك ، والكفر، والفسق ، والطاعة والتقوى .

وقد تلخصت رسالات الانبياء في هذه الكلمات اذ انها تنهى الناس عن الشرك والكفر اساسا ، وعن الفسق والفجور احيانا ، وتؤكد على تقوى الله وطاعة رسوله ، كما نلاحظ ذلك في آيات سورة الشعراء .

والسؤال الذي يطرح هنا والذي هو في ذات الوقت سؤال اساسي وخطير هو، ما معنى الشرك ؟ وما معنى الكفر؟ فعندما نعرف

معنى هاتين الكلمتين الاساسيتين، يستضح لنا ايضا معنى كلمتي الطاعة والتقوى على طريقة معرفة الاشياء باضدادها.

ان القرآن الكريم لا يطلق كلمة الكفر على الجحود بالله ــ تعالى ــ مباشرة، وكلمة الشرك على الخضوع والسجود المباشرين للاصنام البشرية او الحجرية، بل ان كلمة الكفر في القرآن الكريم عادة ما تأتي لبيان الجحود العملي والسلوكي لله ــ تعالى ــ؛ اي ان يدعي الانسان الايمان بالله وعبادته ولكنه يخالف هذه الفكرة عمليا وتشريعيا وسلوكيا، ويسير في الطريق المغاير لها.

والشرك عادة ما يطلق في كتاب الله على عبادة الاصنام، والخضوع للطغاة، والعبادة في القرآن تطلق بدورها على الخضوع والتسليم سواء كانا في نمط السجود والركوع، وتقديم القرابين للاصنام، ام في نمط الخضوع التشريعي والسلوكي.

الاختلاف في تحديد معنى الكفر والشرك :

وقد يتعلق بمعنى الكفر والكافر فقد أبدى علماء المسلمين آراء مختلفة في هذا المجال، فقال بعضهم ان الكافر هو من يترك اي فريضة من الفرائض الالهية، كتارك الصلاة والصوم والحج وما اشبه ذلك.

وقال البعض الاخر؛ بل هو الجحود المباشر والعلني لوجود الله ــ سبحانه ــ، فمن اعلن عدم ايمانه بالله فهو كافر، ومن لم يعلن فهو

مسلم سواء وافق قوله فعله او لا .

وقد اسند كل فريق من هذين الفريقين في كلامه الى دليلين ؛ عقلي و نقلي ، فالذي رأى ان الكفر هو ترك اي عمل من الاعمال الواجبة يدعم برهانه بالاية القرآنية التي تقول : «**ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر ان الله غني عن العالمين**»[1].

وما شابهها من آيات ، كما استندوا الى قاعدة ان فائدة الايمان وروحه هما العمل ، فاذا فقد الانسان العمل فماذا ينفعه ايمانه ؟ وكيف نستطيع ان نسميه مؤمنا .

وهناك دليل نقلي اخر عن الرسول (ص) يقول فيه : «**الايمان ما وقر في القلب وصدقته الاعمال**»[2]، وفي حديث آخر عن الامام الرضا(ع) : «الايمان عقد بالقلب ، ولفظ باللسان ، وعمل بالجوارح»[3].

هذا في حين استند الفريق الثاني الذي قال ان الكفر هو الجحود اللفظي لوجود الله ، الى مجموعة ادلة ونصوص منها قول النبي (ص) : «الاسلام ما جرى على اللسان» ، وقوله : «من شهد الشهادتين فهو مسلم»[4]، كما جاء عن الامام الباقر(ع) : «الاسلام اقرار بلا عمل»[5].

---

(١) سورة آل عمران /٩٧

(٢) موسوعة بحار الانوار /ج ٥٠ ص٢٠٨

(٣) معاني الاخبار /ص١٨٠

(٤) موسوعة بحار الانوار /ج ٥٠ ص ٢٨٠

(٥) تحف العقول /ص٢١٧

وعلى هذا فان من ينطق بالشهادتين ولا ينكرهما انكارا مباشرا فهو مسلم على رأي هذا الفريق ، كافر على رأي الفريق الاخر، وفي الواقع فان النصوص الشرعية ، والادلة العقلية متشابهة في هذا الموضوع المشكل المعقد، والسبب في ذلك ان هوى الانسان ومصالحه تحدو به الى ان يدعي ان الكفر ليس الا مجرد الجحود اللفظي لوجود الله ــسبحانه وتعالى ــ، حتى يريح نفسه من وصمة الكفر، وعار الشرك ، ويجعل الايات القرآنية والنصوص التي تبحث في الكفر بعيدة عنه، متوجهة الى اولئك الذين يعبدون الاصنام الحجرية مباشرة، فهؤلاء هم الكفار والمشركون، اما نحن فسلمون ولله الحمد!

قدرة الانسان الفائقة على الخداع :

ان شهوة الانسان تأخذ مجراها في قنوات ذاته بشكل طبيعي لا ريب، فللانسان قدرة فائقة في المخادعة حتى مع ذاته، فان لم يؤد فرائضه الدينية فان هناك قوتين في نفسه؛ قوة تلومه على ما فعل وهي المسماة بـ«النفس اللوامة» بالمنطق القرآني، وقوة اخرى تبرر له ما عمله وما يعمله وما سوف يعمله، فتراه يريح ضميره الايماني بشتى الوسائل، وهذه القوة التي تسمى في لغة القرآن بـ«المسولة» ، كما جاء في قوله ــتعالى ــ: «**وكذلك سولت لي نفسي**»[1].

---

(١) سورة طه /٩٦

فالنفس تسول العمل القبيح للانسان ، وتجعله بشكل يجعل الانسان مرتاحا ، ففي روحه جهاز لخلاصه من العذاب النفسي حينما يعذب ، فيفصل هذا الجهاز بين الالم النفسي وبين الانسان ، فلانسان الذي يشعر بمهانة في ذاته تحدث عنده حالة الايحاء لنفسه بأنه كبير وجبار، فتحدث عنده حالة الكبر التي هي رد فعل لحالة الصغر، ومركب النقص ، وهذا هو التبرير وخداع النفس ، وقد اشار الى ذلك ــ تعالى ــ في قوله :

«يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم» (١)

«ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم» (٢)

وهذا هو الخداع الذاتي الذي اكدت عليه النصوص الاسلامية ، حيث يحاول الانسان بكل جهده تفسير الايات والاحكام والتشريعات بما لا يتعارض مع اهوائه وشهواته وما فعله وارتكبه سابقا ، وحينئذ تصدق عليه حالة الشرك والكفر.

ان اي فرد منا يسعى ليكون افضل المطيعين ، واخلص المتقين لكي يبقى الشرك والكفر بعيدين عنه ، وهذه حالة نفسية تجعل هذا الموضوع (موضوع تحديد الكفر والشرك) شائكا ومعقدا ، فحتى لو كانت الايات والادلة العقلية واضحة في هذا المجال لحاولنا ابعاد هذا

---

(١) سورة البقرة /٩

(٢) سورة النساء /١٤٢

الوضوح ، ولشوشنا عليه بصورة او بأخرى .

الدراسة الموضوعية كفيلة بازالة الخلاف :

بعد هذه المقدمة نقول ان ذلك التقصير المصطنع في استخراج الادلة الواضحة التي تحدد موضوع الكفر والشرك ، والتقوى والطاعة ، لابد ان يزول عند اطلاق النفس من ضغط الهوى ، ودراسة القضية دراسة موضوعية .

ان الكفر ــ في الواقع ــ ليس فقط الجحود اللفظي ، والايات القرآنية شاهدة على ذلك ؛ فهناك الكثير من الايات تحمل هذا المضمون كقوله ــ تعالى ــ : **«ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله»** [١].

والقرآن يذكر دوما ان الانسان اذا ما اترف ، وعاش في النعمة فانه ينسى ربه ، ويكفر به ، وعلى العكس فانه اذا ما وقع في ازمة او ورطة فانه يسارع الى اللوذ بالخالق ــ تعالى ــ : **«هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين»** [٢].

---

(١) سورة لقمان /٢٥

(٢) سورة يونس /٢٢

كل ذلك يدل على ان فئة قليلة من الناس تجحد بالله ذلك الجحود اللفظي ، فلو افترضنا ان القرآن نزل على هذه الفئة القليلة لعزلناه عن المجتمع .

طاعة الطاغوت مصداق للكفر :

وقد تضمن القرآن الكريم علاج هذه المشكلة النفسية والعقائدية والتشريعية المتجذرة عند اغلب الناس المؤمنين بالله لفظا ، فالجحود اللفظي ليس هو الكفر بمعناه الصحيح ، فالكفر هو في الحقيقة اما ترك التشريع الاسلامي الى غير الاسلامي ، او ترك القيادة الاسلامية واتباع غير الاسلامية ، وهذا هو الكفر او الشرك اذ لا فرق بينهما ، فاذا اهملنا التشريع الاسلامي بمجمله ، ومضينا الى تشريع اخر نرسم به خارطة حياتنا ، فاننا يجب ان نضع انفسنا سلفا في خانة الكفار والمشركين بالله ، وعلى العكس من ذلك فان قبولنا للتشريع الاسلامي كنظام متكامل ، واذعاننا للقيادة الاسلامية الصحيحة يعنيان استحقاقنا ان نكتب في قائمة المؤمنين .

ونحن لا نقصد هنا ان الذي يترك الصلاة هو كافر كما قال الفريق الاول ، فهذا غير صحيح لان الذي يترك الصلاة وهو يؤمن انها واجبة فليس بكأفر بل هو فاسق ، ولكن الذي يترك الاقتصاد الاسلامي ، ويدعي عدم وجود نظام اقتصادي في الاسلام ، او الذي يهمل النظام الاجتماعي مبررا ذلك بأفضلية النظام الغربي او الشرقي ،

او الذي يعرض عن قانون الاحوال الشخصية في الاسلام ويركن الى اتباع الغرب او الشرق في هذا المجال، فهو الكافر حقا بالاسلام.

والذي يترك القيادة الاسلامية، ويتجه الى قيادة الجبت والطاغوت هو كافر بلا ريب، في حين ان الذي لا يطيع القيادة الاسلامية الرسالية المنبعثة من روح التعاليم الالهية في امر معين فانه لا يعدو كونه مشركا شركا خفيا او فاسقا.

المعنى الحقيقي للاسلام:

ان تلفظ كلمة «لا اله الا الله» لا تعني معناه الظاهري بل انها تقتضي من الانسان ان يعرض عن اي ولي او قائد او مشرع سوى الله ـ تعالى ـ، فهي تعني قبول القيادة الاسلامية، وفي اطار هذا القبول تغفر له الذنوب ان تاب، اما من يدعي ان الزنا حلال، وان السرقة التي تكون عبر البنوك والنظام الرأسمالي حلال فان هذا الانسان ليس ممن يقر بـ(لا اله الا الله)، بل هو ممن يؤمن بألوهية النظام الرأسمالي او الشيوعي من دون النظام الاسلامي.

يقول ـ تعالى ـ في تحديد معنى الشرك وحدوده:

«وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما او الحوايا أوما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون * فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين * سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما

اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون * قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين * قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع اهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالاخرة وهم بربهم يعدلون» (١) .

ان نظرة خاطفة الى هذه الايات تكشف لنا عن المعنى الحقيقي للشرك ، فبعد ان يذكر الاحكام الشرعية يبين القرآن الكريم في البدء بقوله : «**فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين**» ، ثم يقول في آية اخرى : «**سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا اباؤنا ولا حرمنا من شيء**» ، ونتابع مع سياق الايات قوله ـ تعالى ـ : «**وهم بربهم يعدلون**» .

ومثل هذه الايات كثيرة الورود في القرآن الكريم كالاية التي تقول : «**اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون**» (٢) .

وقد جاء في الجزء العاشر من تفسير المنار في معرض حديثه عن الاية السابقة نقلا عن الرازي الذي هو من كبار المفسرين في كتابه

---

(١) سورة الانعام /١٤٦ـ١٥٠

(٢) سورة التوبة /٣١

(مفاتيح الغيب) قوله: «ان الاكثرية من المفسرين قالوا: ليس المراد من اتخاذ الارباب من دون الله الاعتقاد بهم فقط، بل الطاعة في الاوامر، والارتداع عن النواهي».

ونقلا عن عدي بن حاتم الذي كان من النصارى انه انتهى الى رسول الله (ص) وهو يقرأ سورة البراءة، فوصل الى هذه الاية «**اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله**».

قال فقلت: انهم لم يعبدوهم.

فقال (ص): بلى انهم حرموا عليهم الحلال وأحلو لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم اياهم[1].

ويعلق صاحب المنار وسائر المفسرين على الاية بقوله: «وجملة القول ان الله تعالى انكر في كتابه حسب رأيه وفهمه هذا حلال وهذا حرام»، وهذا ايضا ما يقوله الفخر الرازي الذي هو حجة في تفسيره، كما انه حجة في نقله عن اغلب المفسرين المسلمين في عصره.

ففي ذلك العصر عرف المفسرون المسلمون المعنى الحقيقي للاية السابقة، والمعنى الحقيقي للشرك الذي تقع التقوى في قباله، والتي تعني الايمان بالوهية الله ــ تعالى ــ في التشريع، والتصميم على قبول اي تشريع صادر من الله، اما الطاعة فهي قبول النظام السياسي للقيادة الاسلامية الرسالية اي قبول قيادة النبي (ص)، والائمة من

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا /ج ١٠ ص ٣٦٥

بعده(ع) .

ان الطاعة والتقوى يمثلان الهدفين الذين كانت تستهدفهما رسالات الانبياء، فالتقوى في مقابل الكفر، والطاعة في مقابل الشرك .

كيف نحول القرآن الى سلاح فعال

كيف يستطيع الانسان اختراق دفاعات الاعداء، ويحطم الحصار المفروض على نفسه وعلى عقله ومعارفه ؟

لا ريب ان امضى الاسلحة يتمثل في العقل المضاد للهوى، والعلم المضاد للجهل، والهدى المقابلة للضلالة، وهو ايضا القرآن الذي يجأر اليه الانسان عندما تشتد به الفتن، والذي يتلوه الانسان المؤمن عندما يجد نفسه تكاد تنهار، ويستعيذ به المجتمع الاسلامي عندما يرى نفسه محاصرا من قبل الاعداء.

ان هذا القرآن هو ذلك المنجي، وذلك الكهف والمأوى والنور والضياء، وهو سلاحك ضد عدوك الداخلي الذي هو الشيطان والنفس الامارة بالسوء، وضد اعدائك في الخارج، فالسلاح الماضي هو هذا السلاح الحاسم القوي المقتدر.

وللاسف فاننا قد لا نستطيع في بعض الاحيان الاستفادة من

هذا السلاح والانتفاع به، فالقرآن بين ايدينا ولكن الشيطان في انفسنا، وغشاوة الهوى على ابصارنا، وبلادنا مستعمرة؛ تتبع الاخرين، وتطيع الطغاة، والذلة على رؤوسنا، فكيف يمكن لنا ونحن مع القرآن ان نعيش التمزق دون الوحدة، والاختلاف دون الاتحاد؟ وما هي العقبة التي لا تدعنا نستفيد من القرآن كأشخاص في مجال تزكية الذات، واستقلال الامة.

كيف نفهم باطن القرآن الكريم ؟

وبالاضافة الى تلك التساؤلات هناك تساؤل مهم آخر يطرح نفسه وهو، كيف نحصل من آيات القرآن على تلك المعاني التي ينبغي لنا وعلينا ان نحصل عليها منه، فنحن نقرأ القرآن المرة بعد الاخرى ولكننا لا نستطيع ان نقرأ ما وراء السطور، ولا نستطيع ان نفهم باطن القرآن، وحتى لو راجعنا التفاسير فاننا لا نحصل على مزيد من المعلومات ؟

وقبل ان نجيب على تلك التساؤلات نقول لو اننا استطعنا ان نخترق الحجاب الفاصل بيننا وبين القرآن اذن لانتهت مشاكلنا مع انفسنا فننتفع حينئذ بالقرآن في مجال اصلاح الذات، كما ان مشكلتنا مع الاعداء ستنتهي هي الاخرى لاننا سنجعل القرآن راية نحارب تحتها، ونجعله ضياء نجاهد على هداه، وستراً بيننا و بين العدو، ولكن المشكلة كل المشكلة تتمثل في اننا لا نكاد نفهم القرآن، ولا نكاد

نتدبر في آياته وكأن بيننا وبينه حجابا مستورا .
مستورا .

ان اختراق هذا الحجاب هو الهدف الاول الذي ينبغي علينا ان نحققه ، فكيف نخترق هذا الحجاب ، وكيف نحول القرآن الى سلاح ضد اهوائنا وشهواتنا وضد كل من يريد استعمارنا واستغلالنا ؟

ضرورة معرفة قيمة القرآن :

للاجابة عن هذين التساؤلين المترابطين لابد ان نقول قبل كل شيء اننا يجب علينا اولا ان ندرك ونعرف قيمة القرآن ، فمن حفظه وقرأه دون معرفة مسبقة به فان هذا القرآن سوف لا يعطيه شيئا ، فالذي يجهل حق القرآن فان القرآن سيجهله وينساه بدوره ، بل ان هذا الكتاب سوف يتحول الى ضلالة بالنسبة الى من يجهل حقه ، كما يشير الى ذلك ــ تعالى ــ في قوله : «**ولا يزيد الظالمين الا خسارا**» [1] .

اما بالنسبة الى المؤمنين فان القرآن شفاء وضياء ونور وهدى ، فهم يزدادون ايمانا وتقوى بالقرآن ولكنه بالنسبة للاخرين ظلالة وحجاب وخسارة وتوغل في الفساد ، لانهم لم يعرفوا القرآن ، فالذي يأتي الى امام من الائمة او رسول من رسل الله وهو لا يعترف بأمامته او نبوته فمن الطبيعي انه سوف لا يكتسب من هذا الامام او الرسول

---

(١) اسراء /٨٢

اي هدى بل سيزداد ضلالة بدل ان يزداد نورا وهدى لانه لا يعترف بهذا الامام او الرسول . والتأريخ يشهد لنا بهذه الحقيقة فقد كان حول الرسول (ص) منافقون بنص القرآن الكريم ومع ذلك فقد كانوا بعيدين للغاية عن هدى الرسول رغم أنه كان يعيش بين ظهرانيهم .

وهكذا الحال بالنسبة الى القرآن فاننا عندما نتلو آياته في حين اننا لا نعرف ما هو، وكيف هو، وما هو حقه علينا ، وواجبنا نحوه ، فاننا سوف لا نزداد بقراءة القرآن الا بعدا عنه .

وقد اكد نبينا (ص) كثيراً على قيمة القرآن وعظيم منزلته قبيل التحاقه بالرفيق الاعلى قائلا : «اني تارك فيكم الثقلين ؛ كتاب الله وعترتي اهل بيتي» ، ولا يفوته (ص) ان يؤكد ان احدهما اعظم واكبر من الثاني الا وهو كتاب الله الذي استشهد اهل البيت(ع) من اجله .

ان علينا ونحن بين يدي القرآن ان يغمرنا الاحساس باننا بين يدي رسول الله (ص) ، فلو شعرت وانت تجلس امام القرآن لتقرأه بأنك جالس امام قدوتك ، وامام المثل الاعلى لحياتك ، والمعلم الاكبر اذن لاستطعت الانتفاع بالقرآن ، ولكنك عندما تجلس امام القرآن ، او ان يُتلى عليك في المجالس ثم لا تنتبه ، ولا تُصِغْ السمع الى آياته فكيف تتوقع ان يمنحك القرآن من افاضاته ؟

القرآن سفير الله الينا :

ان القرآن قبل كل شيء يفسر نفسه بنفسه، ويعرف نفسه بنفسه، فهو سفير الله ــ تعالى ــ الينا، فمن المستحيل ان يوجد شخص يعرف حق القرآن ثم لا يفهم آياته، فإن كنت مؤمنا فأنك لا تملك الا ان تزداد ايمانا بتلاوة القرآن الكريم كما يقول ــ تعالى ــ : **«واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا»**[1]، اما اذا لم تزدد ايمانا فلابد ان تبحث عن الحجاب الذي يفصلك عن القرآن لتعود الى آيات الله.

وعلى هذا فان اول هدف يجب ان نصل اليه هو خرق الحجاب الفاصل بيننا وبين القرآن، ونحن لا نستطيع ان نخترقه الا بأيماننا الاكيد بحق القرآن، فما هو حق القرآن علينا، وما هو واجبنا تجاهه، بل ما هو القرآن اساسا ؟ انه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فاذا ما داخلنا ادنى ريب فيه فان هذا الريب سيجعلنا بعيدين عنه لان القرآن لا ريب فيه كما يؤكد قوله تعالى: **«ذلك الكتاب لا ريب فيه»**[2] في حين اننا نرتاب فيه، والحال ان الريب فينا لا في القرآن.

---

(١) انفال /٢

(٢) بقرة /٢

القرآن هدى للمتقين :

ثم ان القرآن هدى للمتقين ، فالذي يشك فيه لا يكون هدى بالنسبة اليه ، فمن حق القرآن عليك ان لا تشك فيه ، وان لا تساويه بغيره ، ففضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله ــ تعالى ــ على خلقه ، اما ان تجعل اي كتاب قريناً للقرآن فان هذا السلوك يجعلك شاكاً في كتاب الله .

وهكذا فان من حق القرآن عليك ان تحترمه ، اما ان يتلى عليك هذا الكتاب ثم لا تحترمه فان هذا يعني وجود انحراف وشذوذ في سلوكك ، فاحترام القرآن يعني احترام الله ــ تعالى ــ ، فعندما تريد ان تتلو القرآن استشعر الخشوع وحالة الخضوع لله ، واجلس امام القبلة في حالة نفسية معينة ثم افتح كتاب الله فحينئذ ترى ان العلم سيتفجر من جوانبك لان روحك اتصلت بنور القرآن .

واذا ما تدبرت في آيات كتاب الله فلم تحصل على شيء فربما توجد بينك وبين الكتاب بعض الحواجز، فإتهم نفسك ولا تدعي انك بريء ، فيوسف الصديق (ع) على عظمته ومنزلته لم يبرىء نفسه فقال : **«وما ابرىء نفسي ان النفس لامارة بالسوء»**[1]، واحذر ان تحمل القرآن الكريم افكارك ، فلا تقل انني سأقرأ القرآن لاخرج منه

---

(١) يوسف /٥٣

بتدبرات قيمة ابينها للاخرين فيعجبون بافكاري فهذا هو اول انحراف، فنحن لا نقرأ القرآن، ولا نتدبر في آياته من اجل ان يستحسننا الناس، ومن اجل ان نتكبر عليهم، وفي هذا المجال يقول الامام الصادق(ع) ما مضمونه ان القرآن لا يعرف بالتعلم وانما بالاتعاظ به، فهناك الكثير ممن كانوا يحفظون القرآن عن ظهر الغيب ولكنهم كان يصدق عليهم قول النبي(ص): «كم من قارىء للقرآن والقرآن يلعنه».

قراءة القرآن للعمل لا للرياء:

وهكذا فان علينا ان نقرأ القرآن للعمل به لا للرياء، والمباهاة، ومن اجل ان نصعد المنبر لنتحدث للناس ونتباهى امامهم بما حفظنا لان اولئك الذين يجلسون تحت منبرنا سوف يسارعون الى الجنة في حين اننا سنسلك طريقا اخر، والحديث الشريف يقول: «ان اشد الناس ندامة يوم القيامة عالم يدعو الى الخير ولا يعمل به وعمل به غيره فسعد الغير، بقوله، وشقي هو بما قال».

عليك ان تحدد الهدف من التدبر في القرآن، فاذا اتعظت به، ووصلت الى مرحلة الانتفاع بمواعظه، فان القرآن سيكون بالنسبة اليك نورا وهدى وبصيرة وكل ما تبغي منه ان يكون لك.

وبناء على ذلك فانك اذا اردت ان تقرأ القرآن فاقبل عليه بحالة نفسية معينة تقتضي منك ان تعمل بمضامين آياته كأن تنفق اموالك،

او تترك علائقك الدنيوية، وتهجر بلدك ، وتقاوم وترفض وتثور. اما ان تجعل على عينيك غشاوة، وفي اذنيك وقرا وتهرب من القرآن لانه يأمرك ـ مثلا ـ ان تهاجر من بيتك وبلدك ، فهذه ليست قراءة واعية ومتدبرة له.

وبالطبع فان من الصعوبة ان يصل الانسان الى حالة التسليم المطلق لاوامر الله ـ تعالى ـ فهذه الحالة تقتضي من الانسان ان تتفجر الحكمة من جوانبه وان يقع مغشيا عليه عندما يقرأ القرآن، وان تنقله من حضيض الذنب الى قمة التوبة والطهر، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يطلب منا ان نخلق هذه الحالة في انفسنا فيقول: **«الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق»**[1]، بل ان الجبل نفسه لا يستطيع ان يتحمل نور القرآن كما يقول تعالى: **«لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله»**[2].

فحاول ان تضع نفسك في هذه القمة، واتل الآيات القرآنية بتدبر وحينئذ ستجد شلال النور يهبط عليك ، وستجد ربك ذا العزة والجبروت يحدثك ، وفي هذا المجال يروى عن الامام الصادق(ع) انه كان يكرر في صلاته آية **«اياك نعبد، واياك نستعين»** سبعين مرة حتى يضطرب في صلاته، وعندما يسأل عن سبب تكراره لها يقول:

(١) حديد /١٦
(٢) حشر /٢١

كررتها حتى كأني اسمعها من قائلها .

وللاسف فاننا نقرأ فاتحة الكتاب ولا نعرف متى ابتدأنا بها ومتى انتهينا منها ولا نجد انفسنا الا ونحن نقرأ سورة الاخلاص التي نردد كلماتها بصورة آلية ولا نحفظ غيرها عادة .

وعلينا بالاضافة الى ذلك ان نطرد من حولنا وساوس الشياطين ونحن نقرأ القرآن الكريم كما يقول ــ تعالى ــ : «**فأذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم**»[1]، فما هو معنى الاستعاذة بالله ؟ هل معناها ان تقول «اعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم ينتهي الامر؟

ان المعنى الحقيقي للاستعاذة يتمثل في انك لا تملك قوة امام الشيطان سوى الله ــ تعالى ــ ، فعندما تريد ان تتخلص من وساوس الشيطان فعليك ان تندفع الى الله ، وتستعيذ به ، وبهذا المفهوم والرؤية تستطيع ان تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم شريطة ان لا تضمر لأخيك السوء ، ولا ترائي في اعمالك ، ولا تعتبر علاقاتك الاجتماعية والدنيوية ذات اهمية بالقياس الى اهمية تعاليم القرآن ، وان تقطع علاقاتك بالخلق ، وتوثق روابطك بالخالق ، ثم ابدأ بعد ذلك بقراءة القرآن بعد ان تستعيذ بالله من شر الشيطان الرجيم .

واذا ما لم نصل الى مستوى الانتفاع بالقرآن الكريم رغم كل

---

(١) نحل /٩٨

ذلك فان هناك قوانين وقواعد تسهل عملية فهم الآيات القرآنية كالاهتمام بالعلاقة بين الآية والاخرى ، والتركيز على فهم علاقات القرآن داخل الآية الواحدة ، ومعرفة من الذي تنطبق عليه هذه الآية ، وهذه هي مجموعة من القواعد والقوانين التي تسهل التدبر في القرآن ولكنها تبقى عديمة الجدوى اذا لم تكن في مستوى التدبر، واذا لم نستشعر حالة الاقبال على آيات القرآن الكريم .

القرآن دواء امراضنا :

ان لكل واحد منا مرضا يعاني منه ، فأحدنا حاسد ، والثاني ضعيف الارادة ، والثالث متقاعس وهكذا ، وعلى كل منا ان يميز مرضه ، ويفتش في القرآن عن علاج هذا المرض قبل ان يحل يوم الندامة فلا ينفعنا الندم ، وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم : **«ويوم يعض الظالم على يديه»** [(١)] ، وفي الحديث ان الظالم يوم القيامة يأكل يديه حتى المرفق من شدة الندم فيقرضها قرضا ، فمن المألوف ان يعض الانسان سبابته عند الندم او التعجب ، ولكن الظالم يوم القيامة يعض على يديه ، ولا يخفى ندمه في قلبه فهو لا يستطيع ان يخفي ندمه وان شمت الناس به ، فيطلق صرخات الندم قائلا : **«ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتا ليتني لم اتخذ فلاناً خليلا»** [(٢)] .

---

(١) فرقان /٢٧

(٢) فرقان /٢٧ــ٢٨

لنتخذ من القرآن خليلا لنا :

ان الخليل الذي يجب ان نتخذه لانفسنا هو القرآن الكريم فنبكي عندما يبين عذاب النار، ونفرح طمعا في الجنة ليكون القرآن شفيعنا يوم القيامة ، لا ان نتخذ الظالمين المفسدين اخلاء لنا ، فيضلونا عن الذكر من خلال مجالس البطالين، وجلسات الجدل والمراء والتهمة .

علينا بدلا من ذلك ان نقرأ القرآن الكريم كأن نقرأ عشر آيات كل ليلة لكي لا نكتب من الغافلين ، فلنقلل من ظاهرة جلسات اللهو، ولنشكل مجالس الموعظة والعلم والمعرفة لكي نبعد عن انفسنا وساوس الشيطان الذي يقول عنه ــ تعالى ــ : **«وكان الشيطان للانسان خذولا»** (١)، فالشيطان يضرنا ويخذلنا ويحاول ان يصرفنا عن التدبر في آيات القرآن الكريم ، ويجعله كتابا مهجورا بالنسبة الينا ، فيشكونا حينئذ النبي (ص) الى الله قائلا : **«يا ربِ ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا»** (٢)، وكان (ص) يريد ان يقول لقد اهتموا بجرائدهم وصحفهم واذاعاتهم الباطلة ، اما القرآن فقد وضعوه وراء ظهورهم .

فلنحاول ان لا نكون ــ لا سمح الله ــ من مصاديق هذه الآيات

---

(١) فرقان /٢٩

(٢) فرقان /٣٠

القرآنية وذلك من خلال الاقبال على تلاوة آيات القرآن الكريم تلاوة واعية متدبرة وبالشروط والمواصفات التي ذكرناها لكي نصل الى مستوى فهم هذه الايات ، وبالتالي الى مرحلة الانتفاع بها في حياتنا العملية .

التدبر في القرآن

(١) كيف نفهم القرآن
(٢) خطوات لفهم القرآن
(٣) الشروط الغيبية لفهم القرآن
(٤) اهمية الروح العلمية في التدبر

كيف نفهم القرآن

لا شك ان فهم القرآن الكريم يختلف عن غيره من الكتب على اعتبار ان القرآن ـ كما نعرف ذلك جميعا ـ هو كتاب الله التشريعي ، في حين ان الطبيعة ـ مثلا ـ هي كتاب الله الحقيقي. فالانسان القادر على اكتشاف القرآن هو القادر على اكتشاف الطبيعة ، والعكس صحيح فالذي يستطيع اكتشاف الطبيعة يستطيع ايضا اكتشاف القرآن ، وبالتالي فان الانسان اذا بلغ مستوى عاليا من النضج الفكري الواعي ، سيصل ايضا الى مرحلة من النضج الفكري والمنهجي تؤهله لفهم القرآن .

التعلم للعمل :

ومع ذلك فان هناك قواعد منهجية يجب ان يتبعها الانسان لفهم كل حقيقة ومن بينها القرآن، والملاحظة المهمة التي نريد ان نشير اليها

هنا هي ان الانسان يجب عليه ان يتعلم للعمل، اما اذا اراد ان يتعلم لغير العمل فانه سوف لا يبلغ المستوى المقبول من العلم ، كما انه على الانسان ان يتعلم ليكون متعلما ليس الا ، وان لا يداخله اي نوع من الكبر والغرور؛ اي عليه ان يتدبر ويبحث مجردا نفسه من النوايا الدنيوية ، فان خالطت نيته ذرة من الكبر والغرور والاعتداد بالنفس وحب الرئاسة والسلطة والاستغلال ، فانه سيفقد من العلم بمقدار تلك النوايا السيئة التي خالطته .

ان كل شيء من الممكن ان يكون نافعا لنا في طلب العلم ؛ الكتاب الذي ندرسه ، المحاضرة التي نسمعها ، الظاهرة التي نراها ، كل ذلك وغيره من الممكن ان يحقق الفائدة العلمية لنا مادام يرسم في اذهاننا علامات الاستفهام ، ويدعونا الى البحث ، وطلب الحقيقة ، وعلى سبيل المثال فان كنت تقرأ مقالي وتؤمن به ، ثم لا تبحث عن حقيقته وواقعه فانه يعتبر بالنسبة اليك باطلا وان كان صادقا ، فالذي يقبل هذا الكلام على علاته وبدون بحث وتمحيص انما هو طالب معلومات مشوشة ، لا طالب علم بما يحمل العلم من صدق ويقين .

اننا من خلال البحث نرسم امامنا خطا الى الحقيقة يدفعنا الى المثابرة في طلب هذه الحقيقة ، فصدق الحديث وكذبه بالنسبة الى العلم هو الدافع الذي يدفعنا الى التفكير.

وهكذا فان قاعة الدرس يجب ان تكون مبرأة من اوساخ

الماديات، والارتباطات، ومن الافضل لنا ان نكتشف هذه الحقيقة عن طريق المعاناة والممارسة، ففي لحظة الدراسة والبحث العلمي جرّب ان تفتح باب الغرور فاذا بامواجه تهجم على نفسك لتمنعك من فهم العلم الذي تقرأه، ولتلقي على عينيك غشاوة تحجبك عن رؤية الحقيقة.

العلم نور:

وبالاضافة الى ذلك فان الانسان يملك نورا في قلبه نسميه (العلم) وهو اشبه شيء بالعين التي يرى بها الانسان، وهذاالانسان يحتاج الى مقدار من الارادة يوجه بها هذا النور على الاشياء ليكتشفها، فالانسان الذي يريد ان يرى شيئا عليه اولا ان يريد، ويصمم، ويعزم، التعبيرات تختلف ولكن حقيقة الامر توجه الانسان باتجاه الحقيقة التي يريد ان يكتشفها، اما الانسان الذي لا توجه له فانه سوف لا يبصر الحقيقة، وهذا الانسان هو الذي يصاب بزيغ البصر لان ارادة الرؤية مفقودة عنده لان هناك اشياء اخرى قد شغلته عن الرؤية كالخوف الذي يستبد به، والذعر الذي يسيطر على ذهنه ومثل هذه الهواجس وغيرها لا يمكن ان تدعه يفكر في الرؤية.

وهكذا فان ارادة الانسان عندما تنشغل بشيء فانها ستنشغل عن سائر الاشياء فيصبح انسانا ذا بعد واحد ــ كما يقولون ــ، فعند وجود مقدار من الغرور، او مقدار من اي شهوة اخرى عند الانسان

فانه سيتوجه الى هذه الشهوة ، والقلب الذي يتوجه الى نقطة بعيدة عن الحقيقة سوف لا يفهم شيئا .

وللاسف فاننا ابعد ما نكون عن القرآن الكريم وعن كنوز العلم والمعرفة الكامنة فيه في حين ان الغربيين فطنوا الى قيمة القرآن ففتشوا فيه عن افكار جديدة ، فما يقال ان الغربيين قد اكتشفوا العلم من القرآن صحيح تماما ، ولكن هذا ليس معناه انهم تعلموا من القرآن كيفية صناعة الصاروخ ، بل انهم استطاعوا اكتشاف مناهج التفكير من خلال الايات القرآنية ، اما نحن المسلمين فان القرآن لم يتجاوز شفاهنا ، فوقفنا على معانيه الظاهرية ، ولا نبالغ ان قلنا ان القرآن الكريم كتاب مفهوم ، وان باستطاعة كل انسان ان يفهمه ، فلنوح الى انفسنا ونحن نقرأه بان الله ـ تعالى ـ يخاطبنا ، واذا ما اوحى الينا الشيطان اننا لا نستطيع فهم الاية الفلانية فلنراجع التفاسير او لنراجع العلماء في القرآن ونسألهم عن معاني الايات التي لم نستطع فهمها .

ان الشيطان يريد ان يغوينا ، انه عدو لنا فلنتخذه عدوا ، ولنطرده من ساحتنا ونحن نتدبر الايات القرآنية ، ولنقل في انفسنا ان هذه الاية قد بعثها الله ـ تعالى ـ الينا ، واننا نحن الذين يجب ان نفهمها .

بهذه الروح علينا ان نتدبر في القرآن ، لا بروح متخاذلة مستسلمة لوساوس الشيطان والنفس الامارة بالسوء ، فأنت عندما تدخل حربا وانت تعرف انك ستهزم في هذه المعركة ، وان عدوك

اقوى منك لان سلاحه امضى من سلاحك ، فهل تستطيع ان تنتصر وانت مستسلم لهذه الحالة ؟

وهكذا الحال عندما تدخل معركة الفكر فان عليك ان تعرف انك تمتلك سلاحا ماضيا هو سلاح فكرك وعقلك ، وانك قادر على اكتشاف الحقيقة بنفسك ، ولذلك كانت اعظم وصية في هذا المجال تلك التي قالها احد المعصومين(ع) لولده : «يا بني اقرأ القرآن وكأنه نزل عليك» .

ان هذه الوصية هي من اهم الوصايا التي يجب ان يتبعها الانسان المسلم ، فالقرآن الكريم يخاطبنا قائلا : «يا ايها الناس» ونحن من الناس ، الا اذا سلبنا من انفسنا صفة الانسانية ، فالانسان الذي يشك في قدرته على فهم القرآن فانه يكون في الحقيقة قد سلب من نفسه صفة الانسانية ، وكأنه يريد ان يقول : انني لست عاقلا ! وهذا ما لا ينبغي للانسان المسلم ان يفعله .

خطوات لفهم القرآن

من المواضيع المهمة المتعلقة بفهم القرآن الكريم طريقة الاستفادة من التفاسير ومن الروايات فيما يخص مواضع التطبيق القرآني ، او بتعبير اخر فيما يتعلق بالقصص القرآنية . فهناك ــ على سبيل المثال ــ روايات كثيرة حول قصص فرعون ، وروايات اخرى حول قصة يونس او ابراهيم او عيسى (عليه السلام) ، والايات القرآنية تبين جانبا من تلك الوقائع التأريخية ، في حين ان الاحاديث توضح جانبا اخر منها .

اسلوب الاستفادة من الروايات :

ترى كيف نستطيع الاستفادة من هذه الروايات خصوصا وان هناك روايات حول مواضع النزول واسبابه ؟

نحن هنا امام نوعين من الاستفادة ؛ الاستفادة التقليدية ، اي ان لا نتعدى ونتجاوز حدود النصوص الشرعية الموجودة ، فالنصوص

والاحاديث تقول ــ مثلا ــ ان موسى كان طفلا صغيرا عندما وضع في البحر، وان اسم امه كان كذا ، وان هذه الام ذهبت الى بيت فرعون... الى اخره من المعلومات التقليدية، وهناك روايات تتحدث عن اسباب النزول فتقول ان الاية الفلانية نزلت في فلان وفلان ، ومن ثم نجمد على سبب النزول هذا .

وبطبيعة الحال فان هذا النوع من الاستفادة مغلوط ، فهي تقتضي ان نجمد عقولنا وان نجمد معها القرآن الكريم .

وهناك نوع اخر من الاستفادة وهو النوع الذي يهمنا في هذا الفصل ، الا وهو اسلوب الاستفادة من القصص ، والروايات والاحاديث التي تبين القصص هذه على نوعين؛ النوع الاول يمثل الروايات الصحيحة والمؤكدة التي نقف منها موقفا معينا ، والنوع الثاني يتمثل في الروايات او التفاسير غير المؤكدة والتي لنا منها موقف اخر.

اما بالنسبة الى النوع الثاني من الروايات والتفاسير فان الافضل لنا ان لا ننظر اليها ، ولا نتعب انفسنا فيها ، لانها مادامت غير مؤكدة تأكيدا علميا من ناحية السند و الاسناد فهي روايات يجب ان تطرح جانباً ، وهكذا الحال بالنسبة الى التفاسير، فنحن ــ على سبيل المثال ــ لا نعتقد ان (ابن عباس) هو نبي معصوم ، وكذلك الحال بالنسبة الى (ابن كثير) ، فآراؤه لا نستطيع ان نؤكدها كما لا نستطيع في نفس الوقت ان ننفيها .

ونفس الحكم يمكن ان يقرر حول الروايات التي لا تمتلك سندا

موثوقا به ، فهناك روايات ذكرها المؤرخون دون ان يثبتوا انها صحيحة او غير صحيحة ، علما اننا نعرف ان هناك روايات ضعيفة حذرنا الائمة(ع) منها ، ومثل هذه الروايات لا نكلف انفسنا عناء البحث فيها ، والاستناد اليها ، وباستطاعة الفقهاء الكبار الذين بلغوا من علم الحديث وعلم الاسناد والرجال والدراية مرحلة متقدمة ان يكتشفوا من خلال الرواية ومضمونها مدى صحتها وصدقها .

وهكذا لا يبقى امامنا سوى الروايات والتفاسير الصحيحة وكيفية الاستفادة منها فيما يتعلق بالقصص التأريخية واسباب النزول ، فهذه الروايات بامكانها ان توضح لنا الظروف التأريخية المعينة التي كانت الامة تعيشها ، فالرواية الصحيحة تشرح لنا ــ مثلا ــ موقف موسى (ع) من فرعون ، او موقف فرعون من موسى ، او تبين لنا حياة السامري فتقول انه كان في البدء صائغا يملك المال ، فهذه الرواية توضح لنا جانبا من فلسفة القصص التي جاءت في الايات الكريمة .

وفيما يتعلق بالسامري ــ مثلا ــ فان الروايات لم تصرح بانه كان رجلا رأسماليا بل تشير الى انه كان يمتلك الاموال والذهب والفضة ، ومثل هذا الاستنتاج اي كون السامري رأسماليا علينا ان نقوم به نحن ، كما وعلينا ان نستنتج ايضا ان تياراً رأسماليا كان سائدا في ايام موسى (ع) تمثل في عبادة العجل ، والرواية او الاية الكريمة لا تشيران بوضوح الى سبب هذه العبادة ، وهذا السبب علينا نحن ان نكتشفه ، فقد كان من بين بني اسرائيل اصحاب مال وثروة

وبالتالي فانهم كانوا رأسماليين انتهت بهم هذه النزعة الرأسمالية الى عبادة العجل .

صحيح ان هناك اسباب اخرى تذكرها الاية او الرواية ولكن هناك جانباً يجب ان نصل اليه نحن .

الروايات تشرح الواقع الخارجي :

وهكذا فان الروايات تأتي لتشرح الواقع الخارجي ، وحينما نعرف هذا الواقع الخارجي يمكننا ان نهتدي الى الاسباب ، وكذلك الحال بالنسبة الى الروايات التي تتحدث عن اسباب النزول فنحن نستطيع ان نستفيد منها في معرفة حدود وطبيعة الآية ، وحينئذ يمكننا ان نطبقها على هذا العصر، فسبب النزول لا يعني مطلقا ان نجمد الاية الكريمة على تلك الظروف والاوضاع التي كانت قائمة .

ومن اجل ان نوضح هذه الفكرة نطرح فيما يلي الرواية الصحيحة التي تشرح لنا قضية مسجد ضرار الذي تحول الى مكان تجمع فيه رؤساء المنافقين ليقفوا موقفا معارضا من الرسول(ص) بان يلتزموا بالدين دون ان يلتزموا بامام الدين وقائده ، في حين اننا نرى ان النبوة والامامة جزءان لا يتجزآن من الدين ، وان من يؤمن بالدين عليه ايضا ان يؤمن بأئمته وقادته والا كانت اعماله محبطة ، ولكن اولئك المنافقين كانوا بعملهم ذاك يكفرون بشكل عملي بذلك الاصل المهم من اصول الاسلام ، فكانوا يقيمون صلاة جماعة مستقلة

لانفسهم، ويرددون شعار: نحن نريد الاسلام بدون الرسول.

القرآن واحتمالات التفاسير:

وعندما نراجع التفاسير القرآنية نجد انها تعج بالاحتمالات المختلفة في جميع القضايا، وهي تعبير عن اقوال واحتمالات متعددة الوجوه، مستنبطة من الآيات القرآنية او محملة عليها، فكيف يجب ان نتخذ الموقف السليم من هذه الاحتمالات المختلفة؟ يمكننا الاجابة على هذا السؤال من خلال ايراد الملاحظات التالية:

١ ــ الاحتمال دليل الجهل، فاذا ما سئلت عن الطريق فتقول: يحتمل ان يكون الطريق من هنا، ويحتمل ان يكون من هنا، فان هذا دليل على انك تجهل الطريق او تتجاهله.

٢ ــ على الانسان عندما يحتمل احتمالات متعددة، ويطرح افتراضات مختلفة ان لا يبقى عند هذه الاحتمالات والافتراضات، فعليه ان يحاول من خلال عمليات متعاقبة ومتتالية ان يكتشف الاحتمال الاقرب.

وهكذا الحال بالنسبة الى الآيات القرآنية، او المسائل الفقهية فاننا نجد فيها في البدءاحتمالات متعددة، ومن الواجب في هذه الحالة ان نتابع مسيرتنا العلمية حتى نصل الى اليقين؛ اي من الشك الى اليقين، ولا يغيب عنا ان الثقة بالعقل، والتوكل على الله يمثلان طريقا للوصول الى اليقين، فاذا ما شككت في قدرتك على اكتشاف

الحقيقة، او لم تعتقد ان الله ــ تعالى ــ يقذف نور العلم في قلب طالبه، فانك ستقف عند حدود الاحتمالات.

٣ ــ ان الاحتمالات الموجودة في تفاسير القرآن يدل بعضها على مختلف التطبيقات للقرآن، فعندما ينزل قوله ــ تعالى ــ: **«يا ايها الذين آمنوا ...»** ثم نحتمل ان تكون هذه الاية نازلة في حق علي بن ابي طالب(ع)، او جعفر بن ابي طالب، او عمار.. فان هذه الاحتمالات لا تتعارض بل هي تطبيقات مختلفة للاية الواحدة، يمكن ان تجتمع وتكون جميعها مشمولة بمضمون او مفهوم الاية الكريمة.

ونحن كدارسين ماذا علينا ان نعمل ازاء تلك الاحتمالات؟ هل يجب علينا جمع تلك الاحتمالات في قاعدة كلية، او في اطار عام؟ وماذا يعني هذا الاطار العام؟

الأجابة على هذه الاسئلة نقول ان المعاني المختلفة للكلمة الواحدة تعود بالتالي الى معنى واحد، هذا المعنى هو المعنى الكلي الشائع والساري في مختلف المعاني التي هي ليست الا تطبيقات لذلك المعنى الواحد، مثل كلمة (جن)؛ فهذه الكلمة لها عدة معان منها (الجنين)، و(الجنان) اي الارض المغطاة بالشجر، و(الجن) اي ذلك الموجود الغائب، و(جـنّ الليل) اي غط في الظلام، و(المجنون) اي من غاب عقله ... وهكذا.

ان هذه المعاني المختلفة تعود كلها الى معنى واحد شائع في كل التطبيقات، وهو ان يكون هناك شيء مغطى، او شيء يغطي شيئا

اخر؛ فاذا كان الولد في بطن امه غائبا ، واذا كان عقل الانسان غائبا ، واذا كان الكون غائبا في الظلام ، واذا كانت الارض مغطاة بالاشجار، فان جميع هذه المعاني تكتسب ذلك المعنى الواحد .

وعلى نفس هذا المنوال يمكننا ان نقول ان الاحتمالات المختلفة للاية القرآنية تعود الى معنى كلي واحد هو المراد من الاية ، وان تلك الاحتمالات هي تطبيقات لهذا المعنى الواحد ، فعلينا ان نكتشف هذا المعنى الواحد من خلال تجميع الاحتمالات الى بعضها ، ومعرفة الخطوط المشتركة بين هذه الاحتمالات او المعنى المشترك بينها ، لكي يكون هذا المعنى المشترك هو المعنى الحقيقي للاية الكريمة .

وبالنسبة الى الاحتمالات التي طرحناها بشأن تعيين مصاديق او مصداق قوله ــ تعالى ــ : «ياايها الذين آمنوا ..» فأننا نستطيع ان نقول ان هذه الاية تنطبق على جميع الاحتمالات التي ذكرناها ، فجميع الاشخاص الذين سبقت الاشارة اليهم كانوا يشتركون في صفة واحدة هي التي جعلت الاية تنطبق عليهم ، الا وهي صفة الايمان .

معان واحتمالات دقيقة :

ومع ذلك فان هناك معاني دقيقة قد لا تكون واضحة بالنسبة لنا الا من خلال التفكير المستمر والمتواصل ، وعلى سبيل المثال ما هو القاسم المشترك بين الارض والفراش ؟ لا شك انه صفة التسطيح ، فكل واحد منها مسطح ، كما ان هناك احتمالات اخرى يمكننا ان

نطرحها كأن نقول ان المعنى المشترك هو (التمهيد) او (الراحة)..، فكلما ازدادت الاحتمالات حاولنا ان نكتشف المعنى الواحد الذي يجمع بين هذه الاحتمالات المختلفة.

وعلى هذا فان الاحتمالات المختلفة قد لا تتعارض، وقد تتعارض في مرحلة من المراحل، فعلينا في هذه الحالة ان نبحث عن الاحتمال الاقرب الى الاية الكريمة، فالبعض من تلك الاحتمالات قد يكون منشأها التعصبات المذهبية والسياسية ظهرت في مرحلة من المراحل التأريخية ثم انتهت، في حين ان البعض الاخر قد يكون مصدره التوجهات الفقهية، او عدم تطور العلم آنذاك .

وعلى سبيل المثال فان آية «**كأنما يصعد في السماء**»[1] وضع المفسرون امامها مجموعة كبيرة من الاحتمالات قد لا تكون صحيحة جميعها، فهذه الاية تعني ان الانسان لا يمكنه الصعود في السماء كمثل للانسان الكافر الذي يحاول الوصول الى شيء مستحيل، ونحن الان نستطيع ان ندرك الرابط بين الكلمتين.

وهناك ملاحظة في هذا المجال وهي اننا اذا صادفنا آية قرآنية لم نستطيع فهمها رغم محاولاتنا المتكررة، في هذه الحالة علينا ان لا نأتي بمعنى بعيد عن الاية الكريمة لنفرضه عليها، بل علينا ان نعتبرها من المتشابهات التي لا يعلمها الا الله والراسخون في العلم، فمن

---

(١) سورة الانعام / ١٢٥

الممكن ان تمضي قرون مستقبلا نكتشف فيها ابعادا جديدة من العلم، وفي ضوء هذه الابعاد تكون هذه الآيات مفهومة، اما الان فعلينا ان نكتفي بظاهرها دون الغوص في باطنها فيؤد بنا هذا الغوص الى اضطرابات اكثر في الفهم.

وهكذا فان للاستفادة من التفاسير، ومن الروايات التفسيرية اصولا ومبادىء علينا ان نلتزم بها من اجل ضمان فهم اكثر واعمق للايات القرآنية، وبالتالي تحقيق الحد الاقصى من القدرة على تطبيق مصاديق ومضامين الايات القرآنية على واقعنا الراهن.

الشروط الغيبية لفهم القرآن

مما لا شك فيه ان التوكل على الله ـ عزوجل ـ والثقة به من شأنهما ان يفتحا عقل الانسان، فبالتوكل تزداد الثقة بالذات، ويستطيع الانسان ان يبعد عن ذاته العقد النفسية التي تمنعه عن التفكير المركز، ويزيل من نفسه حالة ضيق النظر ومحدودية الرؤية التي تمنع هي الاخرى الانسان من التفكير السليم.

الآثار المادية للايمان بالله :

وهذه هي الآثار المادية للايمان بالله، والتوكل عليه وهي التي يشير اليها القرآن الكريم، في بعض الايات وخصوصا في سورة الانشراح، حيث يقول ـ تعالى ـ: «**الم نشرح لك صدرك ...**»، فشرح الصدر يعني رؤية المستقبل البعيد، والافاق البعيدة، وعدم الانحسار في بوتقة خاصة، وفي سجن من اطارات محدودة وضيقة،

فالمؤمن يتمتع بحالة (انشراح الصدر)، ووضوح وبعد الرؤية، وقد وصف احد الاصحاب الخلص الامام علي(ع)، بانه «بعيد المدى»؛ اي انه لم يكن ينظر الى يومه وساعته والى جماعته وبلده، بل كان ينظر الى المستقبل البعيد، ويخطط للافاق البعيدة.

ولا ريب ان الله ــ تعالى ــ هو الذي يعطينا ميزة «انشراح الصدر»، فعندما نفكر تفكيرا الهيا، وعندما نتصل بالقوة الكبرى لهذا الكون، وعندما نكون قطرة في بحر التوحيد، فحينئذ نستطيع ان نرى كل مكان، وكل زمان، لان الله ــ سبحانه ــ هو المطلق الذي لا يحده زمان ولا مكان، اما اذا كنت ماديا متصلا بالارض فانك ستصبح محدودا متصلا بساعتك، ولحظتك، وبأيام عمرك في افضل الاحوال، فالناس يفكرون عادة في لحظاتهم، وقليل منهم الذين يخططون على المدى البعيد، في حين ان الانسان المسلم المثالي ينبغي ان يفكر لمئات السنين، وهذه الخصلة تتأتى من حالة شرح الصدر، فالايمان يجعلك تحلق في سماء الله، فاذا ما حلقنا في هذه السماء العالية فحينئذ ستكون القلوب صافية، طاهرة، مزكات، لان الامور الدنيوية هي جزئية في رؤية المؤمن بل تافهة، بل انه لا يكاد يراها، فهو اكبر منها، ولذلك فانه يعطى حالة طهارة القلب، كما قال ــ تعالى ــ: **«الم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك ...»**.

التحرر من العقد النفسية :

ومن الطبيعي ان الرسول(ص) لم يكن يحمل جبلا فوق ظهره لكي يرفعه الله ــ سبحانه وتعالى ــ ، بل انها العقد النفسية ؛ فالانسان مبتلى بالحقد ، والحسد ، والبغضاء ، وسوء الظن فاذا ما ارتفعت هذه العقد من نفس الانسان فانه سيكون متحررا .

ولكي اوضح ما اقصده من كلامي اضرب المثال التالي : انك في بعض الاوقات تشعر بالهم لان صديقك مسافر ــ مثلا ــ وانت لا تعرف عنه شيئا ، فتخشى ان يكون قد اصابه مكروه ، ان هذا الهم سيتحول شيئا فشيئا الى ما يشبه الكابوس ، فلا تعرف ماذا يجب ان تفعل ، فتشعر بان نفسك في حالة ضيق ، وكأنك مقيد في سجن ، وانت تعيش في هذه الحالة واذا بصاحبك يعود من السفر ، او يتكلم معك عبر التلفون ، ما هو الاحساس الذي سيغمرك في هذه الحالة ؟ ستشعر بالتأكيد انك قد تحررت ، وان ذلك الكابوس الذي كان جاثما عليك قد ارتفع ، وتلك القيود انكسرت ، وستشعر بالحيوية ، وربما كنت تقرأ ولكنك لم تكن تفهم ما تقرؤه اما الان فانك ستقرأ فاهما وبتركيز بسبب انعدام الشواغل الاخرى .

تصور انك متحرر من هذه الدنيا كلها ، انك ستشعر في هذه الحالة بالحيوية ، والانطلاق ، وهذا هو ما يشير اليه ــ تعالى ــ في قوله : **«ورفعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك »** ، فعندما ينشرح صدرك ، ويزكو قلبك ، ويزول الوزر عنك ، فحينئذ

سوف يرتفع ذكرك ، وسوف تصبح انسانا عظيما، لانك ستنتج ، وتعمل ، وتفكر وتخطط .

وهذه هي المؤثرات المادية المحسوسة للايمان بالله ـ تعالى ـ فالمؤمن به ينشرح صدره، ويرفع الوزر عن ظهره، ويرتفع ذكره، ويتيسر امره .

الاتصال بالنور الالهي :

وهكذا فان الذي يقرأ القرآن يجب ان يكون مؤمنا ، ومتقيا ، ومخلصا ويجب ان يكون في لحظة التدبر في القرآن متصلا بينبوع نور الله ـ تعالى ـ ، والا فان هذا النور سوف لا يغمر قلبه ، ولا يخترق ضميره ، فالقرآن نور الله ، وبصيرة ، ونظارة تجعلها على عينيك فترى الحياة على حقيقتها ، وترى الحقائق كلها في بعدي الزمان والمكان ، اما اذا لم تتصف بالتقوى فستكون بعيدا عن الله ـ سبحانه ـ ، واذا كنت بعيدا عنه ـ تعالى ـ فانك سوف لا تفهمه ولا تفهم كلامه .

وقد جاء في حديث شريف ان الله ـ عزوجل ـ قد تجلى في كتابه لعباده ولكن الناس لا يبصرون ، فالمؤمنون الحقيقيون يتلذذون من تلاوة القرآن الكريم ، ففيه حلاوة دونها هذه الحلاوات او هذه المؤثرات المادية ، فأنت عندما تصلي ركعتين بخشوع ، فان حلاوة هاتين الركعتين ستكون عظيمة للغاية ، وهكذا الحال بالنسبة الى حلاوة ولذة الامور المعنوية الاخرى من مثل حلاوة الاستشهاد في

سبيل الله ــ تعالى ــ ، والحلاوة التي يشعر بها الانسان المؤمن عندما يبشر بالجنة ، فحينئذ ستنتهي كل اتعاب وهموم الدنيا .

وهكذا فان الانسان المؤمن عندما يتصل بالله ــ سبحانه وتعالى ــ ، ويرتبط بنوره ، فانه سيشعر بحلاوة تغمر جسده وروحه وكل احاسيسه .

ترى كيف يستطيع الانسان الوصول الى هذه المرحلة ، والى هذا المستوى الرفيع ؟ كيف نستطيع الوصول الى مرحلة الشعور بلذة مناجاة الله ــ تعالى ــ بحيث تفوق هذه اللذة لذة الاستبشار بالجنة ؟، ومن الطريف ان نذكر هنا ان عقاب الله ــ تعالى ــ للعلماء الذين يريدون بعلمهم غير الله يتمثل في ان يسلبهم حلاوة مناجاته . على ان الاعمق من حلاوة المناجاة ربما يكون علم الانسان ، فعندما يتصل الانسان بأفق علم الله ــ تعالى ــ فحينئذ سوف لا يكون أفقه محدودا ، فعندما يتصل بالله سيشعر وكأن هذه الحدود ، وهذه الجدران قد ازيلت من امامه ، وان هناك انوارا من نور العلم تغمره ، ولذلك فاننا اذا ما صادفنا اثناء التدبر في القرآن آية فهمنا ظاهرها ولكننا لم نستطع فهم بواطنها ، واستيحاء افكار جديدة منها ، فلابد ان نحاسب انفسنا ، فربما كانت صلاتنا مفرغة من الخشوع ، او داخلت انفسنا بعض الافكار الغريبة ، او لم نطهر انفسنا تطهيرا كاملا .

وعلى العموم على الانسان حينئذ ان ينمي في نفسه خصلة التوكل على الله ــ عزوجل ــ ، وان يصل الى الحقيقة من خلال

ذلك ، فالعلم ــ كما يقول الحديث الشريف ــ نور يقذفه الله في قلب من يشاء، وفي هذا المجال هناك حادثة طريفة رواها لي المرجع الراحل آية الله العظمى السيد الخوئي (رض) ، فقال ان احد المفسرين للقرآن الكريم قال لي انه حينما كان يفسر القرآن ، وتصادفه بعض الالفاظ التي يصعب عليه فهمها فانه يبادر الى مراجعة القواميس اللغوية والتفاسير المختلفة فان لم يجد لها جوابا ، اي انه لا يستطيع اكتشاف المعنى الحقيقي للكلمة ، فيتوسل في هذه الحالة بالصوم ، وقبل ان يفطر يذهب الى المسجد ويجلس وحده ويصلي ويتضرع الى الله ــ تعالى ــ ان يلهمه المعنى الصحيح والدقيق للكلمة ، وقد كان في كثير من الاوقات يوفق بالفعل الى ذلك ، فيسجل المعنى الذي يخطر على باله وهو في تلك الحالة الروحانية .

وهكذا فان العلم يمثل نورا يقذفه الله في قلب من يشاء ، وثقوا ان الاعمال الكبيرة التي هي فوق مستوى المجتمع الذي يعيش فيه الانسان، لا يمكن ان تنجز الا من خلال الارتباط مع الله ــ سبحانه ــ .

وهكذا الحال بالنسبة الى تلاوة القرآن الكريم فاننا لا نستطيع فهم آياته ، والغوص في اعماقها ، واكتشاف ما يفيدنا في حياتنا العملية فيها الا من خلال توفير الشروط الغيبية التي ذكرناها فيما سبق ، والتي تؤهلنا للوصول الى مستوى من الصفاء والشفافية يجعلاننا قادرين على فهم القرآن الكريم الفهم المطلوب .

اهيمة الروح العلمية في التدبر

يشترط التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ان يتدبر الانسان في الاية وفي سياقها ؛ اي في الايات السابقة واللاحقة ، ثم يحاول ربط هذه الاية بالايات التي تتشابه معها في الموضوع .

وفي كثير من الاحيان نرى ان البعض يحاول ان يجمع مجموعة من الايات من مواضع متفرقة تتشابه الفاظها ، فيجمعونها في سياق واحد ، ويرتبونها بطريقة توحي ان الايات جميعا تعطي فكرة معينة دون ان يلاحظوا السياق الخاص بكل آية ، وعادة ما يكون هذا النوع من الاستنتاج استنتاجا خاطئا ، لان الذي يفسر القرآن الكريم طبقا لهذا الاسلوب يمتلك في ذهنه اطارا معينا مسبقا يفسر على ضوئه الايات القرآنية ، فيحملها ما قد لا تحتمله .

وعلى هذا فان احد الشروط الاساسية في فهم القرآن ، والتفسير الموضوعي له ، محاولة التدبر في الاية من خلال سياقها ، واقتباس

فكرة منها ، ثم تكرار هذه المحاولة بالنسبة الى الايات الاخرى التي يتشابه موضوعها مع موضوع هذه الاية ، ثم ربط الفكرتين مع بعضهما ، والاستنباط منهما .

كيف نربط القرآن الكريم بواقعنا ؟

الموضوع المهم الاخر هو قضية ربط القرآن الكريم بالواقع الحاضر، فعندما نعقد العلاقة بين القرآن وبين واقعنا المعاش سنكون اعمق فهما للواقع واعمق ادراكا للقرآن في نفس الوقت ، فعلمنا هذا يشبه الى حد كبير ان نعطي فكرة ثم نضرب مثلا لها ، فحينئذ تصبح الفكرة اكثر وضوحا ، كما ان المثل بدوره سيصبح واضحا .

واذا ما اردنا ان نستفيد حقا من القرآن الكريم بالنسبة الى الواقع الخارجي فان علينا ان ندرس الواقع الموضوعي كله ، فكما قلنا فان الايات القرآنية يجب ان تدرس من خلال السياق ، وكذلك الحال بالنسبة الى الواقع الموضوعي فاننا يجب ان ندرسه من خلال سياق التأريخ له .

وعلى سبيل المثال فاننا نطرح الان موضوع الانظمة الحاكمة باعتبارها انظمة طاغوتية ، ولكن هذا الطرح يستند في الحقيقة الى اسس مغلوطة ، فكل واحد من هذه الانظمة الطاغوتية له اصوله ، وجذوره ، واساليبه ، وتفكيره ، وتركيبته ...

في احدى سور القرآن الكريم التي ذكرت فيها قصص

الانبياء(ع) مع شعوبهم ، نرى ان كل قصة تبدأ في الظاهر بعبارات متشابهة كأن يقول لهم رسولهم ؛ اعبدوا الله واتقوه ، ولكن قومه يعارضونه ، ثم ينزل الله ــ تعالى ــ عليهم العذاب ، وقد اشتركت جميع تلك الاقوام بهذه الصفة ؛ يرسل اليهم النبي ، فيعارضونه ويكذبونه ، ثم تتدخل قوة غيبية لتحطم وتفني هؤلاء القوم .

ولكننا عندما نتعمق في مضامين هذه الايات القرآنية التي تبدو متشابهة نكتشف ان هناك فروقا بينها ، فكل قوم كانوا يرتكبون جرائم معينة ، ونوعا معينا من الفساد ، ثم ينتهي هؤلاء القوم بسبب هذا الفساد المعين ، في حين ان النبي كان يضع يده على بؤرة الفساد ، ويطلب منهم تجنبها .

وعلى هذا فاننا عندما نريد ان ندرس الواقع الاجتماعي فان علينا ان ندرسه من خلال سياقه التأريخي ، وخصائصه الاجتماعية ، وميزاته المعينة ، فكل قوم يختلفون عن الاخرين ، فعندما ندرس الخصائص ، وندرس الاية من خلال هذه الخصائص نكتشف ان القرآن الكريم عندما يذكر لنا مثالا تأريخنا معينا لكل نوع من الانواع المختلفة للانظمة ، فانه يذكر لنا في الحقيقة سلوكية منحرفة خاصة ، مثل قصة النبي موسى (ع) مع قومه كمثال للحكومة العنصرية التي تفضل عنصرا على عنصر اخر ، وتعتمد على ايديولوجية دينية معينة ، في حين ان قوم عاد ــ مثلا ــ لم يكونوا يمتلكون منهجا دينيا خاصا ، بل كانت لهم حضارة جبارة تتحكم في مصائر الناس .

فلكل ظلم شكل، ورد هذا الظلم ينبغي ان يكون بالشكل الذي يتناسب مع نوعه، فان لم ندرس الايات ضمن سياقها، والواقع ضمن سياقه فسوف نشتبه في التطبيق، لان معرفة الواقع شرط ضروري لمعرفة حكم هذا الواقع من خلال الايات القرآنية كما ان معرفة الايات القرآنية هي الاخرى شرط ضروري لهذه المعرفة.

نوعان من التفكير:

وبالاستناد الى ما سبق ان ذكرناه يمكننا القول ان هناك نوعين من التفكير؛ التفكير الرياضي، والتفكير الواقعي أو التركيبي، فالتفكير الرياضي يدور دائما بين شقين متناقضين فيقول ــ على سبيل المثال ــ ان الانسان كبير او صغير، واما متزوج او عازب، واما اسود او غيره وهكذا...

اما القسم الثاني من التفكير ــ التفكير الواقعي او التركيبي ــ فانه يقسم الاشياء حسب ما تقتضيه الواقعيات الخارجية، وفائدة هذا التفكير انه يتحدث عن ما هو موجود، ولا يتحدث عن امور فرضية.

ان الفكر السليم هو الفكر الذي يجمع بين الاثنين؛ بين التفكير الرياضي، والتفكير الواقعي؛ اي انه يقسم اولا تقسيمات رياضية، ثم يحاول ان يجد لهذه التقسيمات الرياضية انواعا وافرادا في الواقع الخارجي، فان لم يجد نوعا من الانواع الواقعية قرر ان هذا النوع ليس موجودا، وان كان ممكن الوجود عقلا ولكنه غير ممكن الوجود في

الواقع الخارجي .

ان العلم يتجه الان الى ان يعتمد اسلوب الاحتمالات ، اي ان يدرس كل الامور بلغة الرياضيات حتى بالنسبة الى العلوم الانسانية كعلم الاجتماع ، فتراهم ــ مثلا ــ يبينون الظواهر الاجتماعية من خلال الخرائط والرسوم البيانية .

وبالنسبة الى القرآن الكريم ، وعلاقتنا بهذا الكتاب العظيم لنحاول ان نحدد اخطاءنا بلغة الرياضيات ؛ فقد تنشأ هذه الاخطاء من الانسان نفسه ، وقد تكون ناشئة من اعداءه ، وهذه الاخطاء قد تكون قاتلة وقد تكون غير قاتلة ، وقد تكون منظمة او غير منظمة ، ومن الممكن ان تكون مفاجئة او معلومة ، لنحاول ان نرسم لها جدولا في اذهاننا ، ثم نبدء بعد ذلك بقراءة القرآن ، وننظر الى الفراغات الموجودة في ذلك الجدول لنحاول ان نملئها .

ان فائدة هذا النوع من المحاسبة انه لا يدع واقعة من الواقعات تشرد من فكر الانسان ، كما ويتيح التميز بين الانواع المختلفة ، فان من ضمن الاساليب العلمية للسيطرة على الشيء تجزئته ، فاذا اردت ان تسيطر على فكرة معقدة فما عليك الا ان تحللها ، وتجزئها الى اقسام صغيرة لتسلط الضوء على كل قسم منها .

وهكذا فان التدبر الموضوعي في القرآن الكريم يجب ان لا يكون بمعنى الجمع بين الايات ؛ اي فهرستها ، فنحن نحتاج الى عمق اكثر لكي نربط بين الايات الكريمة والمراحل والظروف المختلفة ،

فالطاغوت لا يستخدم السلاح دائما ولا الاعلام بشكل دائم ايضا ، فكل عمل يقوم به انما هو رد فعل للعمل الذي يقوم به الانسان الرسالي الثائر او الجماهير.

لنجعل تدبرنا في القرآن اكثر عمقا :

وعلى ضوء ذلك كله لنحاول ان نجعل تدبراتنا القادمة في القرآن الكريم متمتعة بعمق اكثر، وخصوصا فيما يتعلق بعلميات التدبر الموضوعية خشية الوقوع في الخطأ فيها نظرا الى دقتها وحساسيتها .

فلنهتم بفهرسة المواضيع ؛ اي ان نأخذ المواضيع ونقوم بفهرستها ، ثم نجد الايات المناسبة لكل بند من البنود ، وعلينا ان نعلم ان الامر يجب ان لا يقتصر على هذه الحدود من التعمق بل علينا ان نتجاوزها لكي نستطيع معرفة المرحلة ، وتحديد الظروف ، ثم تطبيق الايات القرآنية عليها فان وجدنا مضامين هذه الايات ملائمة لتلك الظروف اخذنا بها ، واستعنا بهذه الايات على فهم الاحداث المختلفة التي تجري من حولنا على ضوء الاحداث والوقائع التأريخية التي يبينها القرآن الكريم فيما يتعلق بالامم السابقة .

بصائر القرآن في الجهاد

(١) بصائر القرآن في المقاومة

(٢) بصائر القرآن في الجهاد

(٣) بصائر القرآن في النصر والهزيمة

(٤) المعادلات السياسية في المنظار القرآني

بصائر القرآن في المقاومة

ان اعظم صفة تجعل من القرآن كتابا هاديا وبشيرا قدرته على تقريب الانسان الى الحقائق الكونية بشكل يجعله يلامسها ويحس بها لينـدفع للتفاعل معها ، وتطبيقها على واقع نفسه وحياته ، ولذلك فان آيات الذكر الحكيم تسقط الحجب السميكة التي تفصل الانسان عن سائر المخلوقات حتى يكتشف بالتالي ان سنن الله ـ تعالى ـ هي السائدة في الكون والحياة .

الا ان المشكلة الرئيسية التي تكمن في اسلوب معرفة مجموع الحقائق السائدة هي ان الانسان عادة ما يلاحظ الحقائق القريبة والظاهرة في حين يجهل او يتناسى الحقائق البعيدة ، رغم ان بعض هذه الحقائق لها دور اساس في رسم ملامح المستقبل ، وتحديد معالم المسيرة على اعتبار ان معرفة بداية الطريق ليست بالمشكلة الشائكة ، لان المهم ان يسير الانسان برؤيته الأصيلة الى آخر المطاف .

القرآن يفصل الامثال :

والقرآن الكريم بدوره يفصل للانسان الامثال ، والحقائق بوضوح وسهولة ، بحيث ان الاية الواحدة منه كفيلة بتلخيص عبر التاريخ ، والسورة منه قادرة على شرح حوادث سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية لملايين البشر، ولذلك فان الانسان مدعو الى دراسة هذه التجارب في ثنايا الذكر الحكيم لعدم تمكنه من ادراك كافة الوقائع البشرية .

وعلى سبيل المثال فان الاية الكريمة : «**خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين**»[1]، تشتمل على ثلاث جمل قصيرة يحتوي كل منها على كلمتين او ثلاث ، ولكنها رغم هذا الايجاز الدقيق تشكل خريطة شاملة للسلوك البشري المتكامل ، بحيث ان علماء الاجتماع ، والنفس ، واختصاصيي السلوك البشري لا يستطيعون ادراك الابعاد الواسعة لهذه الجمل الثلاث ، ولما توصلوا الى كنهها .

ومن هذا المنطلق تبرز الحاجة الى بصائر القرآن لمعرفة مقياس حسن وقبح الاعمال بشكل واقعي ؛ ففي بعض الاحيان يكره الانسان شيئا في حين ان نهايته تكون في صالحه ، وفي احيان اخرى يحب شيئا ولكن نهايته تكون سيئة ، بينما نرى ان القرآن يوضح لنا هذا المقياس في الاية الواحدة قائلا : «**..وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ،**

---

(١) سورة الاعراف /١٩٩

وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم»[1]

ان معايشة القرآن لا تعني الصداقة الظاهرية مع ظاهر الايات بقدر ما هي اتصال معنوي يدفعه الى تطبيقها على نفسه، وقد عشت هذه الحالة من خلال التجربة، فأحسست ان القرآن كمثل الشمس تشرق كل يوم لتعطي آفاقا جديدة، ورونقا ذا نكهة اخرى لنفس اليوم.

وهكذا الحال بالنسبة الى القرآن الكريم فانه يزود العقل الانساني من خلال القراءة اليومية له بأبعاد وآفاق جديدة حتى ان اقتباسات الانسان، واستيحاءاته من القرآن تتطور الى الافضل مع مرور الايام من خلال التفاعل الواقعي مع القرآن، وهذا يعني من جهة اخرى ان هذا الكتاب يمثل بالنسبة الى الانسان حديثا وبصيرة، وهذان المفهومان اللذان تكررا في الايات القرآنية يؤكدان على ان القرآن يعايش مرحلة الانسان، فالحديث يعني ان القرآن يتجدد، ويخاطب الانسان بلغة الحدث الذي يعيشه، وكذلك البصيرة التي تبصر الانسان بين فترة واخرى بالموقف السليم من الاحداث المتجددة.

وضمان تجسيد هذين المفهومين في سلوكنا تطبيقنا للحديث الشريف الذي يقول: «اقرأ القرآن وكأنه نزل عليك»، وانا اؤكد ان هذا الاسلوب في التلاوة سوف يمنحه النور الذي يكتشف من خلاله

---

(١) سورة البقرة /٢١٦

خلفيات الاحداث، وطبيعة العلاقات، ومنهج الحياة الفاضلة بالاستلهام من بصائر القرآن وهداه.

ترى؛ كيف تتفاعل البصائر القرآنية مع النهضة الاسلامية التي نشهدها الان في الساحة؟ وما هي العبر التأريخية التي تنفع الامة في صراعها الدامي مع الاستكبار وعملائه؟

قبل البدء في شرح بعض البصائر القرآنية هناك ملاحظة يعتبر ذكرها من اولويات انتصار النهضة الاسلامية الا وهي ضرورة الاستمرار في المسيرة التصاعدية حتى تحقيق المطالب المنشودة، فهناك الكثير من الاشخاص يرسمون في اذهانهم خططا كثيرة، واساليب متعددة للوصول الى هدف ما، الا ان هذه الخطط تتوقف وتتراجع لمجرد حدوث طارىء قد يعيق مؤقتا المسيرة التنموية، ولذلك فان الذين يصلون الى النهايات المحددة يشكلون فئات قليلة جدا بالقياس الى المجموع العام.

والنهضة الاسلامية المتصاعدة في هذه الايام تكررت مثيلاتها في تأريخنا الحديث، فقبل مائة عام تقريبا انبثقت نشاطات، وتوجهات، وتفجرت حركات دامية في مختلف البلدان الاسلامية حتى ان بعض الحركات الاسلامية امتلكت قواعد شعبية واسعة الى درجة ان البعض منها كادت ان تصل الى الانتصار لولا انزلاق قادتها الى اودية عميقة قتلت كل مكاسب هذه الحركات.

ومن هنا فان العاملين في الساحة الاسلامية لابد ان يناقشوا،

ويتدارسوا تجارب هذه الحركات حتى لا يقعوا في الشراك التي ينصبها لهم اعداء الاسلام كما حدث في العراق، بعد ثورة العشرين، ومصر بعد ثورة احمد عرابي.

ان فشل بعض هذه التجارب الثورية لا يعني اغلاق سبيل الثورة ضد الغاصبين، ذلك لكون الثورة الاسلامية تمثل مسيرة ستراتيجية دائمة لابد منها، عبر نهضة مقدسة مدروسة الخطط والاساليب لتسد بذلك نقاط الضعف والثغرات التي تدخل منها الهزائم.

بصائر القرآن في العمل الرسالي:

ولعل حاجتنا الى بصائر القرآن الكريم تزداد، وتصبح ماسة في هذه الفترة بالذات، فكلما خاض المجاهدون تجارب جديدة في النضال، واقتحموا ابوابا واسعة لمحاربة الاعداء، اشتدت الحاجة الى الامدادات القرآنية في المنعطفات والمنزلقات التي يمر بها الثائرون، ومن البصائر التي تذكرنا بها الايات القرآنية ما يلي:

١ ـــ من اولى الستراتيجيات الاساسية لعملية التغيير والثورة ان لا يصيب المجاهدين التعب والملل في خضم هذه المسيرة، وهذا يعني اعتماد الحذر كمبدأ رئيسي خشية السقوط في الشراك الشيطانية، وتنمية الارادة الصلبة الكفيلة بالوصول الى القمة، ذلك لان الشعور بالتعب والتداعي في طريق الجهاد يعني السقوط من القمة الى قعر الوادي، هذا السقوط الذي يذهب بجهود وتضحيات جمة قدمت اثناء

الطريق، وعلى سبيل المثال فان القائد لو ادركه التعب في وسط المسيرة الثورية فان هذا يعني ضياع الدماء، والتضحيات الجسيمة في لحظة واحدة.

وهذا ما يستلزم استبعاد التعب و الانهاك عن تفكيرنا منذ البدء لكي لا نضيع الكثير من الجهود، فالصمود هو خيارنا الافضل اذا انخرطنا في السلك الجهادي، ولاسيما ان التعب في مقياس الحرب يعني الهزيمة، والهزيمة بدورها تعني فقدان المحارب لكل وسائل الدفاع والهجوم التي يمتلكها.

وعندما يشتد وطيس المعركة بين المجاهدين واعدائهم، فانهم مدعوون الى انتظار الفرج الالهي، ففي معركة الاحزاب مثلا التي تعتبر من اقسى الحروب التي خاضها رسول الله (ص) اجتمع حلفاء قريش للقضاء على القوة الاسلامية بشكل مبرمج، ولكن ضربة الامام علي (ع) لعمرو بن ود العامري غيرت ميزان القوى لصالح الدعوة الاسلامية، وهذا ما يفسر لنا قول النبي (ص): «ضربة علي يوم الخندق افضل من عبادة الثقلين».

وهكذا فان الهدف من الابتلاءات، والاختبارات الصعبة التي واجهتها الثلة المؤمنة في هذه الغزوة يتمثل في معرفة حقائق الرجال، ولكي يتخذ المؤمنون الرسول (ص) قدوة واسوة خصوصا وانهم قد يواجهون ظروفا مشابهة للظروف التي عاشها رسول الله (ص).

٢ ـــ دراسة التجارب الجهادية واستيعابها:

تقول الاية الكريمة : «**ياايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذا جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا**»[1]، ولعل في هذه الاية اشارة واضحة الى ضرورة دراسة حياة النبي (ص) المقرونة بالملاحم البطولية التي كانت في عهده (ص)، والامر بالذكر في الايات السابقة يدل على وجوب ذكر قصة هذه الملحمة البطولية، ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان دراسة حروب الرسول (ص) توازي تعلم القرآن الكريم لان هذه الحروب سوف ترسم خريطة العمل، وتمنحنا البصائر الستراتيجية الهامة.

ويستمر السياق القرآني قائلا : «**اذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا**»[2]، فقد احاط الاعداء بالمسلمين من كل جانب، حتى ان ابصار المؤمنين كانت لا تثبت على شيء من شدة خوفهم وفزعهم، فكانوا يحسون بان قلوبهم ترتفع الى حناجرهم بسبب تلاحق الضربات، ويصف القرآن الكريم هذا الموقف الصعب في قوله : «**هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا**»[3].

---

(١) سورة الاحزاب /٩

(٢) سورة الاحزاب /١٠

(٣) سورة الاحزاب /١١

الحذر من دور المنافقين :

وفي ظل هذه العوامل المثبطة يبرز دور المنافقين التخريبي الذي يشير اليه ــ تعالى ــ في قوله : **«واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا»**[1]، فيمتنع هؤلاء المنافقون عن دفع المال بحجة الحاجة ، ويرفضون النصرة مفضلين المشاغل الدنيوية ، ويتهربون من سائر الاعمال المقدسة ، وقوله ــ تعالى ــ : **«والذين في قلوبهم مرض»**[2] دلالة على ان هناك فئة اخرى غير المنافقين تسهم في اثارة الانحرافات ، وبث الضلالات عبر نظراتها السلبية ، وعلى هذا فان من النتائج الايجابية للابتلاءات معرفة هذه الفئة ، فمن خلالها تنكشف حقائق الكثير من الناس .

وبالاضافة الى عمليات بث الاشاعات التي يقوم بها المنافقون ، فانهم يحاولون رسم خطوط مشبوهة لترويج الخطوط التراجعية عند المسلمين متذرعين بتبريرات مختلفة يشير اليها القرآن الكريم في قوله : **«واذ قالت طائفة منهم يا اهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون الا فرارا * ولو دخلت عليهم من اقطارها ثم سئلوا الفتنة لاتوها وما تلبثوا بها**

---

(١) سورة الاحزاب /١٢

(٢) سورة الاحزاب /١٢

الا يسيرا»[1]، وكل هذه الاساليب تستهدف ـ كما تشير الى ذلك الاية ـ الفرار من ساحة المواجهة .

الثبات القضية المركزية في الجهاد :

ثم يذكر الله ـ عزوجل ـ بالقضية المركزية في الجهاد قائلا :
«... ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وكان عهد الله مسؤولا»[2]، فالثبات امام الاحداث الطارئة من البنود الاساسية في المعاهدة مع الله ـ تعالى ـ ، ومن المعلوم ان معاهدة الرسول (ص) ، والقيادة الشرعية تدخل ضمن المعاهدة الالهية، ولذلك فان التملص من اوامر القيادة ، او التراجع عن العمل الجهادي ، والهرب من التجمع الايماني كل ذلك يعني خيانة للمعاهدة مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

ولقد وضعت القوى الكبرى ثقلها في ميزان دعم الانظمة العميلة ، ولما لم يتمخض هذا الثقل الاعلامي والتقني عن نتائج فاعلة ، اضطرت هذه القوى الى دعم هذه الانظمة بالقوة العسكرية ، فالامريكيون متواجدون الان في منطقة الشرق الاوسط بقوة عسكرية هائلة من خلال قواعدهم العسكرية ، وعبر الوجود الصهيوني في

---

(١) سورة الاحزاب /١٣ـ١٤

(٢) سورة الاحزاب /١٥

اسرائيل ، كما ان بعض القوات الامريكية المنتشرة في العالم تساهم في تثبيت بعض الانظمة السياسية .

ان الاستكبار، وعملاءه من الحكومات ، والكيانات الارهابية يحاولون الان تصفية القوى الاسلامية من خلال مخططات العنف والارهاب ، وعمليات الاغتيال للرموز الاسلامية .

ولقد حدث ما يشبه هذه العمليات بعد وفاة الرسول (ص) من خلال معاوية الذي لعب دورا كبيرا في تصفية معارضيه من الشيعة من الشخصيات الاسلامية المعروفة بتأريخها العلمي والجهادي .

ان كبر الكثافة السكانية للمسلمين في العالم لا يعني بالضرورة توجههم بالكامل الى عملية الصراع ضد المستكبرين ، بل ان هناك اقلية مستضعفة تمارس هذا الدور، وهي محاصرة من قبل اولئك المستكبرين ، وفي هذه الحالة فان هؤلاء المجاهدين بحاجة الى فترة اخرى من الصبر، والعمل الصادق ، واني لا تنبأ بحدوث بعض النتائج والمكاسب الايجابية خلال الفترة القريبة القادمة انشاءالله .

وهكذا فان الاسلاميين يقفون على اعتاب مرحلة جديدة هم احوج ما يكونون فيها الى الصبر، والاستقامة ، والصمود من خلال اتكائهم على ارادة اسلامية صلبة تقهر القوى الاستكبارية معلنة عن بزوغ فجر اسلامي مشرق ، وتاركة وراءها كابوسا ثقيلا طالما جثم على صدر الامة الاسلامية .

بصائر القرآن في الجهاد

مثل الامة المؤمنة كمثل شجرة طيبة كلما مر عليها الزمان اشتد ساقها ، وانتشرت فروعها ، ومثل الامة الكافرة كمثل شجرة مجتثة من فوق الارض فكلما مر عليها الزمان تحطمت فروعها ، وتفتت ساقها .

الصراع يزيد المؤمنين تماسكا :

والصراع بين هاتين الأمتين كلما دام كان افضل اثرا ، واحسن عاقبة ، ذلك لان الصراع يهدم اسس الامة الفاسدة ، في حين يزيد الامة المؤمنة قوة وتماسكا وتجربة وصمودا ، لان المشاكل هي التي تصقل شخصية الانسان المؤمن ، واذا اضيفت اليها مشاكل الصراع ومآسيه فان نفوس المؤمنين سوف تزداد صلابة ، ذلك لان مواقفهم من المشاكل تختلف اساساً عن مواقف الكفار. فالانسان المؤمن يتلقى المشكلة كتجربة جديدة يخوضها من اجل اكتساب المناعة والهدى

والعلم كما يشير الى ذلك قوله ـــ تعالى ـــ :

«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا»[1].

ولو كانت الدنيا سهلة ميسورة ، واقتصر فيها دور الانسان المؤمن على عبادة الله ـــ تعالى ـــ من خلال الصلاة والصوم ، والحياة العادية الروتينية ، فان مثل هذه الحياة لن تمكنه من بلوغ مقام محمود ، فقد يدخل الجنة ولكنه سيحصل على الدرجات المتواضعة فيها ، في حين ان الانسان المؤمن ينبغي ان يكون طموحا ومتطلعا الى الدرجات العُلى ، فهو لا يكتفي بالحصول على ورقة تجوز له دخول الجنة ، بل يريد ان يكون : **«مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن اولئك رفيقاً»**[2].

ولن ينال المؤمن هذه الدرجة الرفيعة دون ان يخوض تجربة الامتحان في الدنيا حتى تصقل نفسيته ، والقادر على اجراء البلاء قادر على اعطاء الصبر عليه ، لان رحمة الله بالعباد ، وبالمؤمنين خاصة تأبى انزال البلاء الصعب على المؤمنين دون منحهم القدرة على مقاومته ، وبالتالي فان الانسان المؤمن يدخل في مدرسة الابتلاءات ليخرج بطلا حاملا بيده شهادة الصديقين والشهداء والصالحين ، وهذا ما اشارت اليه الايات الكريمة التالية :

---

(١) سورة العنكبوت /٦٩

(٢) سورة النساء /٦٩

«الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت، وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا» [1].

اي ان القول الثابت في الحياة الدنيا هو عاقبة الثبات في مواجهة المشاكل، وهو بالتالي نتيجة الشجرة الطيبة التي يكون عودها قويا ثابتا، وجذورها ممتدة في اعماق الارض وفروعها منتشرة في السماء، وهكذا يكون الانسان المؤمن حينما يواجه اعاصير المحن والابتلاءات، فيصلب عوده، ويقوى ساقه، وتمتد جذوره، وتنتشر فروعه.

الابتلاء حصن الانتصار:

ومعرفة هذه الحقيقة ضرورية لاتخاذ الموقف المناسب وفقها، وخصوصا في مواجهة الاعداء، وبعد الانتصار عليهم لتجاوز غرور هذا الانتصار، ونبذ الانانيات التي قد تبرز بعد الانتصار، وتجاوز الطفيليات التي تتسلق شجرة الانتصار، وتنخر في اعماقها، ولذلك فاننا نواجه في هذه الحالة مشاكل اكبر من مشاكل ما قبل الانتصار.

---

(١) سورة ابراهيم /٢٤ـ٢٧

فلنتفرغ لتحدي المشاكل الخارجية بصمود اكبر، ووحدة اقوى ، لان الصراع يستمر قبل الانتصار وبعده ، ولكن كلما طالت فترة الصراع قبل الانتصار كلما ازداد تحصن المؤمنين ضد المشاكل التي يفترض وجودها بعد الانتصار.

وعلى هذا فان استمرار الصراع له مردودات ايجابية ، فهو يعطي القدرة على تقييم المواقف ، وبناءالكوادر، وتوعية الجماهير، وتمييز الخطوط المنحرفة التي قد تتسلل في الصفوف ، ومعرفة العالم المحيط بنا ، والمؤامرات التي تنسج في الخفاء، واكتشاف العناصر الاسلامية المخلصة في العالم الاسلامي للتحالف معها من اجل بناء مستقبل افضل .

برنامج الجهاد في القرآن الكريم :

وفي سورتي (الضحى) و(الانشراح) يحدد الله ــعزوجل ــ مرحلة من احرج المراحل التاريخية التي مر بها رسولنا الاعظم محمد(ص) ، وفي سورة الضحى يشير ــتعالى ــ الى هذه المرحلة قائلا : **«والضحى ، والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى»** .

فقد كان هناك تساؤل من قبل الناس ، او من قبل بعض المؤمنين وهو: لماذا لم ينزل الله ــتعالى ــ النصر على نبيه وعلى المؤمنين ؟ فأجاب ــعزوجل ــ على هذا التساؤل قائلاً : **«ما ودعك ربك وما قلى»** ، اي انه لم يهجرك ، ولم يتركك للاعداء .

وفي الحقيقة فان هذه السورة تزودنا ببرنامج في نضالنا ضد الطواغيت ، وعلينا ان نتخذ كل بند من بنوده ، وكل آية من آياته برنامج عمل ، ومنهاج سلوك واتخاذ مواقف . وفيما يلي نستعرض بنود هذا البرنامج :

١ ــ **«وللاخرة خير لك من الاولى»** : فلنفترض ان المجاهدين لم يحققوا الانتصار، فهل ستذهب جهودهم هباء ؟

طبعا لا ، لان الشهادة ستوصلهم الى رب العالمين ، وسواء طالت المدة ام قصرت فان الاجر مكتوب عند الله ــ عزوجل ــ ، وان طول المدة لن يزيد هذا الاجر الا نموا .

٢ ــ **«ولسوف يعطيك ربك فترضى»** ، فالرضا غير موجود في الدنيا ، ولكن الانسان المؤمن هو الوحيد الذي يمكنه ان يرضى ، لان الله ــ تعالى ــ يمنحه الرضا ، وحالة الاطمئنان في نفسه ، وهذا هو الامل الذي يحدو بنا الى التحرك المستمر، لان النهاية هي الرضا ، والرضا هو قمة العطاء .

٣ ــ **«الم يجدك يتيماً فأوى»** ، ويشير ــ تعالى ــ هنا الى ضرورة توفر عنصر القيادة ، وعنصر الارضية اللازمة لانطلاق الثورة .

٤ ــ **«ووجدك ضالاً فهدى»** ، وبعبارة اخرى فان الوضوح ضروري للعمل الرسالي .

٥ ــ **«ووجدك عائلاً فأغنى»** ، فالمد الاقتصادي يُعد قضية هامة بالنسبة الى الثورات .

واجبات مابعد الانتصار :

ثم يوجهنا القرآن الكريم الى ثلاثة واجبات :

اولا : مادام المجاهدون قد بلغوا مرحلة متقدمة من النضال ، فعليهم ان لا ينسوا الثغرات ، ونقاط الضعف في انفسهم ، ولا يتركوا حالة الجذب والاستقطاب في صفوفهم ، ولا يغتروا بهذا المقدار البسيط من الانتصار، بل عليهم ان يجعلوا نعمة النضال مفتوحة للجماهير حتى يتنافسوا في الجهاد ضد الطاغوت ، كما عليهم ان لا يصدوا الجماهير عن العمل لعدم وجود الحق الشرعي الذي يخول لهم ذلك .

ثانيا : مساعدة المحتاجين ، وقد اشار ــ تعالى ــ الى هذا الواجب في قوله : **«واما السائل فلا تنهر»** .

ثالثا : النظرة المتوازنة بين قائمة الايجابيات والسلبيات لان تركيز النظر على الجانب السلبي يؤدي الى اليأس ، واليأس هو من جنود الشيطان ، فعلينا بدلا من ذلك دراسة الايجابيات والتحرك من خلالها الى الامام للحصول على مكاسب جديدة ، وقد استلهمنا هذا الواجب من قوله ــ تعالى ــ : **«واما بنعمة ربك فحدث»** .

انشراح الصدر من اهم مستلزمات الصراع :

اما القسم الاخير من البرنامج فيبينه ــ عزوجل ــ في سورة الانشراح في قوله : **«الم نشرح لك صدرك»** ، فنحن بحاجة الى شرح

الصدر، لان قلب الانسان اذا كان ضيقا فانه سيتأثر بأبسط مشكلة .

والوسيلة الوحيدة لتحقيق حالة (انشراح الصدر) تتمثل في التوكل على الله والثقة بنصره، واليقين بان كل شيء يرد على الانسان المؤمن هو خير له سواء كان مصيبة أم مكسبا .

ومن جهة اخرى فان ارتباطات الانسان بالدنيا كتعلقه بالمال والاهل والاولاد والمناصب ، هي التي تثقله وتجعله يخلد الى الارض ، اما اذا تحرر الانسان من الاغلال النفسية فانه يستطيع ان يتحمل الصعاب على عكس الذي يحمل هم الابن و الاهل والبيت فانه لا يستطيع ان يحمل في قلبه هم الاسلام ، لان همين لا يمكن ان يجتمعا في قلب واحد، وحتى اذا اجتمعا فانهما لا ينميان في الانسان قابلية المقاومة ، وعلى العكس من ذلك فان الانسان اذا تقشف في الدنيا ، وزهد فيها ، ولم يهتم بالمظاهر الدنيوية فانه حينئذ سيكون بمقدوره حمل هم الرسالة الاسلامية .

ضرورة الاستمرارية في العمل :

واخيرا يوجهنا ــ تعالى ــ الى برنامج مهم يتمثل في قوله ــ تعالى ــ : «**فاذا فرغت فانصب**» ، فالذي يحمل هما كبيرا ، او يتطلع الى تحقيق هدف عظيم فانه لا يفرغ من عمل الا لينشغل باداء عمل آخر، وزاده في هذه الرحلة الطويلة ذكر الله ، والرغبة في ثوابه .

وقلب الانسان هو الذي ينخر فيه التعب لا جسمه لان تعب

الجسم ناجم من الروح والاعصاب ، فاذا كانت النية قوية فان الجسم سيتحمل متطلباتها ، والذي يجعل الانسان نشيطا حيويا هو الهدف السامي ، والثقة المستمرة بالله ، وبالتالي نبد الهموم الثانوية جانبا .

بصائر القرآن في النصر والهزيمة

القرآن مصدر نور يضيء دروب الانسان في الحياة ، فهو المصباح الذي يهديه الى السبيل القويم ، والنور الذي يستنير به في العثور على ضالته في الحياة ، ليصل الى المحجة البيضاء ، وان اولئك الذين استبصروا بالقرآن وبصائره ، واهتدوا بنوره وهداه لم يضلوا ، ولم يقفوا حيارى في طريق سيرهم التكاملي ، فهم ينظرون الى المستقبل كما ينظرون الى حاضرهم ، وكما خبروا ماضيهم ، ذلك ان في القرآن اخبار الماضين ، والعبر التي ينتفع بها الحاضرون والآتون . فبأخبار الماضين يتعظ الحاضرون ، فيبصرون السبيل ، وبهم تهتدي الاجيال القادمة ، وينار امامهم المستقبل .

والله ــ سبحانه وتعالى ــ هو الذي رسم السنن ، وشرع القوانين ، واقام أسس الانظمة السائدة في هذا الكون ، ولذلك فانه ــ تعالى ــ اجدر بأن يرشدنا السبيل الى معرفة سننه والنظم التي تنطوي عليها ،

ويدفعنا الى التحرك والسير عبرها نحو الاهداف التكاملية.

وقد ضل ضلالا بعيدا اولئك الذين يدعون غيرهم الى القرآن، ولا يغتنمون الهداية بنوره الوضاء، فيكون مثلهم كمثل الذي يصفه القرآن الكريم قائلا: «**... كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه**»[1]، او كتائه في ظلمات يعبر عنه ـ تعالى ـ في قوله: «**... ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور**»[2].

وهكذا فان النور الذي يهتدي به الانسان الى طريقه، وينقذه من مضلات الحياة ومتاهاتها انما هو من الله ـ عزوجل ـ هذا النور الذي يتجلى بهيا وساطعا في كتابه العزيز.

ومن ميزات القرآن الكريم انه كتاب خالد لا يخلقه مرور الازمنة والدهور، والسر في ذلك انه لا يعالج المتغيرات، فكل ما فيه هو تعبير عن السنن الثابتة التي لا تتغير.

القرآن هو كتاب الحق فهو لا يحدثنا عن المظاهر الخارجية للحقائق الا بشكل مقتضب، بل يحدثنا عن القيم والسنن، وعن الخلفيات والقواعد الحقة، فاذا حدثنا ـ تعالى ـ عن مواجهة الايمان والمؤمنين للكفر والكافرين فانه لا يحدثنا عن طبقة معينة في مكان

---

(١) سورة الرعد/ ١٤

(٢) سورة النور/ ٤٠

محدد، بل يفصل لنا القول عن الايمان كأيمان، والكفر ككفر، ويحدثنا عن واقع الايمان والكفر وحقيقتهما، لا عن مظاهرهما ومصاديقهما.

القرآن يكشف عن الحقائق :

نعم من الممكن ان يضرب لنا القرآن الكريم امثلة واقعية، ولكننا اذا امعنا النظر في آياته فاننا سنكتشف ان حديثه مركز على بيان الحقائق، ومن هنا نلاحظ ان الله ـ سبحانه ـ يؤكد بين الحين والاخر على ان سننه لن تتغير، وان الانسان لن يجد لها تحويلا، وان الكافرين الذين اهلكوا عبر التأريخ لا يختلفون عن أية مجموعة اخرى من الكافرين، كما يشير الى ذلك قوله ـ تعالى ـ : «**... وللكافرين امثالها**» (١).

فمتى، واينما، وانى كان هؤلاء الكفار فان تلك الحقائق سوف تتكرر، وتلك السنن سوف تتجسد مرات ومرات، فلا ينبغي القول ان الزمان قد اختلف حيث السيف ـ مثلا ـ كان سيد الموقف بالامس، واليوم ظهرت الطائرات الحربية، والدبابات المتطورة، والاسلحة الالكترونية، فالانسان الكافر يبقى كافرا سواء تسلح بالسيف ام بالمدفعية والاسلحة المتطورة، فهو كافر في جميع الاحوال،

---

(١) سورة محمد / ١٠

متبع لطريق الضلال، وهذه حقيقة اثبتها الله ــ تعالى ــ، واكدها التأريخ.

فلننظر، ولنقرأ التأريخ على صفحات الطبيعة، وعلى ما تبقى من آثار الاولين، كما يدعونا الى ذلك الخالق ــ تعالى ــ في قوله: «**افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**»[١]، فلندرس التأريخ حتى نعرف ان هؤلاء الذين مضوا كانوا يمتلكون القوة المادية في العصور الغابرة، حتى كان الرجل منهم يسحر اعين الناس، ويهتف بعزة فرعون لا بأسم الله.

وعلى هذا فان القرآن يحدثنا عن القيم، وعن الحق الذي قد يتجسد في شخص او جماعة او امة، او في بلد معين، ولكن القرآن لا يحدثنا الا عن ما يجسده الشخص، وعن ما يوجد في هذا البلد من قيم وحق.

ومشكلة الانسان انه يبحث عن المظاهر؛ فالعين ترى المنظر، والاذن تسمع حركات هذا المنظر، ولكن العقل هو المسؤول عن التعمق والنفاذ بالبصيرة الى الواقع الكامن وراء هذا المظهر.

نصر الله:

وهنا اريد التوقف عند حقيقة عرفانية تتجلى لي من خلال قوله

---

(١) سورة محمد /١٠

ــ تعالى ــ : «**ان تنصروا الله ينصركم**»[1]، فالملاحظ ان القرآن هنا يعبر عن الحقيقة بلفظة (الله)، فهو لا يقول تعبيرات من مثل (ان تنصروا الدين) او (ان تنصروا الكتاب او الرسول)، بل يقول: «**يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله**» فالحديث هنا ليس عن شخص، ولا عن خط، ولا حتى عن قيم، بل القرآن اعلى واسمى من ان يحجم رسالته بتلك المفاهيم، بل يستخدم لفظة (الله) بكل جبروته، وعظمته.

ترى ماذا تعني هذه الكلمة، ولماذا لم يستخدم القرآن الفاظا اخرى؟

في هذا المجال يقول المفسرون ان المعنى: ان تنصروا دين الله، او إن تنصروا كتاب الله ورسوله، والخط الصحيح في منهج الرسالة، بلى ان هذه بعض معاني كلمة (الله)، ولكنها ليست كل المعاني التي تحويها لفظة الجلالة، فمن المعلوم ان الله ــ تعالى ــ هو الذي انزل الكتاب، وارسل الرسول، وايد الحق، وامر بالشرائع، ومع ذلك يـظل اسم الله اشمل وأوسع تأثيرا في قلوبنا.

والسبب في ذلك ان تلك الكلمة هي كلمة الله خالق السماوات والارض، ومودع سننه فيها، وهو المدبر والمباشر لامور الناس جميعا في كل لحظة، وطرفة عين، فهو المهيمن علينا جميعا، وهو

---

(١) سورة محمد /٧

الذي اعطانا القدرة على التحدث، والاستماع، والهمنا القول والفهم، وله الولاية على الخلق جميعا، فهو الحي القيوم، الشاهد علينا اينما كنا.

وبالاضافة الى ذلك فان لفظة الجلالة لها ابعادها الايمانية والعرفانية والوجدانية المؤثرة في قلوب البشر على اعتبار ان كل قلب يتعطش الى ربه، وكل شيء يسبح بحمده، ومع كل ذلك تبقى كلمة (الله) لها معناها الاوسع.

ان الله ــ عزوجل ــ لم يعدنا بالنصر اذا نصرنا الرسول بل قال: «**ان تنصروا الله**»، ذلك لان كلمة (الله) اوسع واشمل من كلمة (الرسول)؛ وبتعبير آخر فانك ايها الانسان إن نصرت شيئا معينا يتصل بالله ثم لم تنصر الشيء الاخر، او نصرت كتاب الله ولم تنصر الرسول او نصرت الرسول والكتاب ولكنك لم تنصر الخليفة الشرعي للرسول، او نصرتهم جميعا ولم تنصر احكام الله... فان الله ــ تعالى ــ لا يعدك بالنصر. وهذا يعني اننا يجب ان ننصر كل شيء يتصل بالله ــ عزوجل ــ.

التحزب والفئوية ينافيان النصر:

وفيما يلي سوف نحاول اكتشاف المعاني الخفية الكامنة في تلك الاية الشريفة؛ يقول ــ سبحانه وتعالى ــ في الحديث القدسي: «من اهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة»، ومن تجليات معاني هذا الحديث

الشريف ان الانسان لابد ان ينصر كل اولياء الله ، لان نصرة ولي الله هي من نصرة الله ــ عزوجل ــ ، اما ان يتقوقع كل واحد في حدود جماعته وفئته وخطه وحزبه ثم يمكر بالمؤمنين ويتآمر عليهم بدلا من ان ينصرهم وينتصر لهم فانه سوف لا يحقق مفهوم (نصرة الله) .

ونحن هنا بين امرين لا ثالث لهما وهما ؛ اما ان نقول اننا مؤمنون ، وان كافة الناس كفار ، وهذا ما لا يجوز عقلا وشرعا ووجدانا ، واما ان نقول اننا مؤمنون ، وان الاخرين مؤمنون ايضا ، ولكننا لا ننصر الا انفسنا ، وهذا الموقف غير جائز ايضا ، فمادام الاخرون مؤمنين ، ونحن مؤمنين فان الجميع اخوة ، وماداموا اخوة فلابد ان يتناصروا ، والتناصر يعني بالتالي نصرة الله ــ تعالى ــ .

ولكن لنسأل انفسنا في هذا المجال ؛ هل نصرنا الله بنصرة اوليائه ، ام نحن ممن قال عنهم الخالق ــ تعالى ــ في الحديث القدسي السابق : «من اهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة» وهل نتوقع نصر الله ونحن نخذل اخواننا المؤمنين هنا و هناك ؟

لقد كان فريق من بني اسرائيل يزعمون انهم ابناء الله واحباؤه ، فقال الله ــ تعالى ــ : **«قل فلم يعذبكم بذنوبكم»**[1]؟ فربنا المتعال لا يمكن ان يخذل ابناءه ، بل انتم بشر ممن خلق ، وعبيد كالاخرين .

---

(١) سورة المائدة /١٨

الانانية سبب كل هزائمنا :

ان نظرية (نحن ولا غيرنا) هي المسؤولة عن كل هزيمة ذاق المسلمون مرارتها عبر التأريخ، لانهم انشغلوا باختلافهم، وتناحرهم، فسبب اختلافهم هذا ذهاب ريحهم، وزوال قوتهم، كما يشير الى ذلك ــ تعالى ــ في قوله : «**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**»[1].

وقد قال المفسرون في معنى هذه الاية ان (الريح) تعني هنا السمعة الحسنة، ولكنني ارى ان لها معنى اعمق؛ فهي تعني (الارادة)، لان الانسان عندما يحارب اخوانه فانه يفقد ارادته وعزيمته وصلابته امام العدو، فاذا كان هذا الانسان عزيزا على اخوانه، فانه يكون ذليلا امام عدوه والعكس بالعكس.

وفي آية اخرى يقول ــ عز من قائل ــ : «**فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه**»[2]، وهؤلاء هم عباد الله الحقيقيون، فهل نحن منهم ام اننا نغلق في وجوه الاخرين كل ابواب النقد؟

التشاور والانفتاح على تجارب الاخرين :

ان من سيرة المؤمنين التشاور، والانفتاح على النقد، وتقبل

---

(١) سورة انفال /٤٦

(٢) سورة الزمر /١٧ــ١٨

النصيحة، والاستماع برحابة صدر الى اقوال الاخرين، والاستفادة من تجارب الامم، وهذه هي سنة الله، وهو ــ تعالى ــ لا ينصر الا بسننه.

ومن سنن الله اتباع القرآن، ومما دعا اليه القرآن ان يفتح الانسان المؤمن اذنه، وقلبه لينتفع بتجارب الاخرين وافكارهم، فمن وظائف الامة الاسلامية تجاه ولي الامر بذل النصح له، ومن مسؤولياتهم الشرعية النصيحة لاخوانهم المسلمين.

وللنصيحة هنا معنيان:

١ ــ ان نخلص لهم.

٢ ــ ان نتحدث اليهم بما ينبغي ان يفعلوا.

فنحن جميعا في سفينة واحدة، واذا رأينا من يخرق هذه السفينة فلابد ان نأخذ على يده، فحالة اللاأبالية، والتفرج، هي حالة خطيرة تسبب اضرارا كبيرة لنا جميعاً.

اننا لا نعيش في العالم لوحدنا، فهو عالم واسع يعيش فيه المليارات من النفوس، ولدى كل مجموعة منهم افكارهم ونظرياتهم، ولذلك لابد لنا من الانفتاح على تجاربهم وافكارهم، فلابد ان نسعى لنغير حالتنا الفردية في التفكير والعمل، واتخاذ المواقف، لان هذه الحالة تؤدي الى نتائج معكوسة وخطيرة، ولذلك ينبغي التحول الى الحالة الجماعية في اعمالنا وافكارنا ومواقفنا، فالمنهجية الفكرية الفردية، والحالة الحزبية الضيقة ابعدتنا عن بعض، فعاش كل واحد

منا في واد حتى تعرضنا للاخطار والمآسي والنكسات ، وادى الامر بنا الى هذا الوضع الذي نراه في بلاد المسلمين .

لابد من العودة الى كتاب الله :

اننا نعيش في زمن القهر والتخلف ، زمن تحكمه شريعة الغاب ، ومن هنا لابد من الرجوع الى كتاب الله ـــ تعالى ـــ الذي فيه تبيان لكل شيء ، وحتى اذا انتصرنا لابد ان نعود اليه لكي نعرف كيف نحافظ على مكسب الانتصار لكي لا يصيبنا الغرور.

ان الفقه الاسلامي يقول : ينبغي عليك ان لا تأخذ اسيرا في حالة التقدم لانك قد تنشغل به ، بل عليك ان تثخن في الارض اولا ، ونحن الان مشغولون بمتاع الحياة الدنيا وزينتها ومناصبها وعناوينها ، فلنستعذ بالله من شرور انفسنا ، ونسأله ان يجيرنا منها ، فالنفس التي بين جنبي الانسان هي ألد اعدائه ، فقد ينصرك الله ـــ تعالى ـــ على عدوك الخارجي ولكن الأهم الانتصار على النفس .

والغرور هو عدونا بعد الانتصار، اما اذا اصابتنا نكسات مرحلية فان عدونا هو اليأس والاحباط ، والقرآن هو العلاج لكلا الحالتين، فلنعد اليه ، ولننفتح على التأريخ، وعلى تجارب الامم وعلى افكار بعضنا البعض لكي نضمن بذلك الانتصار، والسيادة السياسية للاسلام .

المعادلات السياسية
في المنظار القرآني

عندما نضع الكون في اطار البصيرة القرآنية، وننظر الى حوادثه بهذه البصيرة فان موازين القوى، ومعادلات السياسة سوف تتحول تحولا جذريا لدى الانسان، وهذا ما يدعونا الى التفاؤل والعمل الاكثر، وفي نفس الوقت يدفعنا الى التعالي على الظروف بقدر التواضع لله ـ سبحانه وتعالى ـ، كما ويدعونا الى توجه الهي يختلف عن توجهات البشرية.

فلسفة الابتلاء :

وفي آيات مباركات من سورة محمد(ص) يبين لنا الله ـ تعالى ـ فلسفة الصعوبات التي يجتازها الانسان في سبيل الوصول الى اهدافه، او بعبارة اخرى فلسفة ابتلاء الانسان بهذه الصعوبات على الرغم من قدرة الله على ان ينصر عباده بالغيب منذ البدء.

وبعد ذلك يبين لنا ان الكفار الذين شذوا عن مسيرة الرسالة بعد ان تبين لهم الهدى سوف لن يضروا الله شيئا ، لان القوة الحقيقية المطلقة واللانهائية في هذا الكون انما هي لرب العالمين ، وبذلك فان اعمال الكافرين سوف تتحول الى هباءٍ منثورٍ، لانها ليست قائمة على جذور ثابتة .

وبعد ان يحذر الله ــ تعالى ــ المؤمنين بدورهم من عدم جذرية العمل ، بأن لا يكون عمل الانسان وفق موازين السياسة الالهية ، والمعادلة الرسالية ، يشير الى ان القوة الحقيقية انما هي للمؤمنين ، فعليهم ان لا يشعروا بالضعف ، ولا يدعوا الى السلم وهم الاعلون لانهم هم المؤمنون .

وفيمايلي نوردتلك الايات القرآنية بعدان ذكرنا خطوطها العامة ، ومضامينها الرئيسية : «**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم * ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط اعمالهم * ياايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول ولا تبطلوا اعمالكم * ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم * فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم اعمالكم**» (١) .

---

(١) سورة محمد(ص) ٣١ــ٣٥

فلنتدبر في هذه الايات الكريمة من هذه السورة المباركة، وخصوصا الاية التي يقول فيها ــ تعالى ــ: **«ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين»**.

هدفان للانسان المؤمن :

ومن خلال التدبر في هذه الاية نستنتج ان هناك هدفين اساسيين ينبغي ان يسعى الانسان المؤمن لتحقيقهما وهما :

١ ــ ان يكون مجاهدا .

٢ ــ ان يكون صابرا .

والصبر يأتي بعد الجهاد، وستكون لنا وقفة طويلة عند هذين الهدفين الاساسيين في حياة الانسان المؤمن .

ان الانسان ليس بالمظهر، او الجسم الضخم، او العناوين الجذابة، والاسماء البراقة، ولا بالشعارات، والملابس، والمراكز، بل ان الانسان بعمله، وجهاده، وصبره في ساعة المحنة لتظهر حقيقته، ويتجلى باطنه، كما يشير الى ذلك ــ تعالى ــ في قوله: **«ونبلوا اخباركم»**.

وبالطبع فان الحقيقة معروفة سلفا لله ــ عزوجل ــ، ولكن رحمته تأبى ان يأخذ الانسان بما يعلمه ــ سبحانه ــ، بل بما يعمله، وتكسبه يداه .

وبعد ان يذكر ــ تعالى ــ ان المؤمنين يجب ان يثبتوا صفتي الجهاد والصبر في انفسهم بعد ان تظهر اخبارهم، وانهم من المعدن

الاصيل ، بعد ذلك يحذر الله ــ تعالى ــ الكفار قائلا : **«ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط اعمالهم»** .

فهؤلاء الكفار لا يستطيعون التأثير في المسيرة ، نعم من الممكن ان يقتلوا مجموعة من المؤمنين ، وقد يهزمونهم في معركة ، وقد يستطيعون ان يكوّنوا لباطلهم جولة بسيطة ولكن المسيرة الالهية مستمرة ،والانسان المؤمن الذي يذوب في هذه المسيرة ، وفي هدفه ، والذي لا يأبه بنفسه بل يهتم برسالته ، لابد ان يكون مطمئن البال لان هدفه سيتحقق ، ولان مسيرته ستستمر ، ولان هذا الهدف ،وهذه المسيرة ستنتهيان الى الله ــ تعالى ــ وبما ان اعمال اولئك الكافرين لن تضر الله ــ سبحانه ــ فانها سوف لن تضر الانسان المؤمن ايضا .

وهكذا فان اعمال الكافرين سوف لا تثمر فحسب بل انها ستنتهي ، وتتحول الى اعمال سلبية تحيط بهم ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله .

وكما ان للمؤمنين هدفين رئيسين هما : الجهاد ، والصبر ، فان هذين الهدفين لابد ان يتقولبا ضمن طاعة الله ، وطاعة الرسول ، اذ قال الله ــ عزوجل ــ : **«يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا اعمالكم»** (١) ، وفي غير هذه الحالة فان العمل سيبطل .

---

(١) سورة محمد / ٣٣

ان اعمال المؤمنين لا يمكن ان تبقى مقطوعة، لان الله ــ تعالى ــ يقيض لمشعل الرسالة من يحمله عبر التأريخ، كما ان الراية الالهية سيكون في الارض من يقف تحتها، ويدافع عنها، فان انتهيت انا، فان المسيرة لن تنتهي، وان استشهدت، او عذبت او سجنت فان هناك مؤمنين سيقومون بدوري.

لنحاول ان نطبق هذه الايات الكريمة على الواقع السياسي المعاصر، ونضع الاحداث السياسية ــ ولو للحظات ــ وراء هذا المنظار القرآني، ولنتساءل عبر هذا المنظار، ومن خلال هذه البصائر القرآنية عن المعادلات القائمة، أهي معادلة الله ــ سبحانه ــ ام معادلات الطواغيت؟

ان هذه المعادلات قائمة بين فئتين؛ بين امة مجاهدة صابرة، وبين مجموعة من الكفار مجتثي الجذور، وباطلي الاعمال، ومنتهين الى الابد، انها معادلة بين هاتين القوتين؛ قوة الله التي لا تنفد ولا تعرف الحدود، وقوة الباطل الزهوق.

ترى اين نحن من الرؤية الصحيحة لهذه المعادلات؟ ولماذا تتحول المعادلات التي يركبها اعداء الدين، واعداء الانسانية الى منظار لرؤيتنا المستقبلية، ولماذا ننظر الى الحياة عبر المعادلات الجاهلية؟

فلننظر الى كل ذلك عبر المعادلة التي تقول: ان الجهاد هدفه خلق الامة المجاهدة الصابرة من خلال الاخذ بنظر الاعتبار الملاحظات التالية:

١ ــ برمجة اسلوب الجهاد : عندما يكون هدفنا الجهاد فلابد ان نبرمج طريقة جهادنا في سبيل الله لكي نحقق هذا الهدف، وبتعبير اخر، اذا قال الله ــ تعالى ــ لك ان الهدف من الصلاة هو ان تكون منتهية الى رضوانه عبر قوله ــ تعالى ــ : «**ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**»(١)، وعبر قولة الرسول العظيم (ص) : «الصلاة معراج المؤمن، الصلاة قربان كل تقي»، فان ذلك يعني انك يجب ان تصلي بطريقة تؤدي الى هذا الهدف، وتنتهي الى هذه الحكمة. فالصلاة ينبغي ان تكون بأسلوب يحقق الحكمة منها، وحكمة الصلاة العروج بروح المؤمن، والحصول على رضوان الله ــ عزوجل ــ.

وهكذا الحال بالنسبة الى الجهاد فعندما يقرر الاسلام ان الهدف من الجهاد هو ان تبلى اخبار المؤمنين، وان يصنع الانسان المجاهد الصابر، فلابد ان نبرمج طريقة جهادنا طبق هذا الاسلوب لاجل الوصول الى هذا الهدف، وعلى سبيل المثال فان الامام الصادق (ع) يروي في هذا المجال عن رجل من اصحاب النبي (ص) وهو عمار بن ياسر قائلا : ان عمارا ما خير بين امرين كلاهما في الله الا اختار اشقهما على نفسه.

وهكذا الحال بالنسبة الى طريق الجهاد، فعندما يكون الهدف

---

(١) سورة العنكبوت /٤٥

من الجهاد بناء الانسان ، وتنمية ملكة الصبر في نفسه ، وابلاء اخباره ، واظهار مخبره ، فيجب ان نخطط للجهاد بشكل يبني هذا الانسان وذلك من خلال تحميل النفس المشاق والصعاب ، فان كان امامنا اسلوبان في الجهاد ؛ اسلوب صعب ، واخر سهل ، فعلينا ان نختار الاسلوب الاول ، لان الهدف من الجهاد هو بناء الامة الصلبة الصامدة القوية فلابد ان نختار الطريق الاصعب .

وكذلك الحال فيما اذا كان للجهاد اسلوبان اخران ؛ اسلوب يعطي ثمرة العمل بسرعة واخر يحتاج الى الصبر، فعلينا في هذه الحالة ان نختار اسلوب الصبر، لان الهدف من الجهاد هو الصبر، وكذلك الحال بالنسبة الى سائر الحكم الالهية المذكورة في القرآن الكريم ، فان علينا ان نتفحصها تفحصا ، وان نسعى من اجل فهمها سعيا ؛ فهذه الحكم ليست مذكورة لمجرد التسلية ، او لمجرد المعرفة ، بل يجب ان تتحول الى هدف .

وهكذا فان الجهاد ينبغي ان يكون هدفنا ، اما الهدف من الجهاد نفسه فهو الصبر والصمود ، وبذل ما في الوسع من جهد .

تفجير الطاقات الكامنة :

٢ ـــ ان الانسان يمثل قوة هائلة لا يعرف هو نفسه حدودها وآفاقها ، فأمام الانسان آفاق لا تحد ، وقدراته العقلية والجسمية قدرات كبيرة للغاية ، ولكن هذه القدرات تبقى كامنة ، فمتى يا ترى تتفجر

قدرات الانسان ؟

ان قدرات الانسان تتفجر عندما تصطدم بالصعوبات ، فالحاجة أم الاختراع ، والامم القوية في التاريخ التي استطاعت ان تبلغ من الحضارة شأوا عاليا هي الأمـم التي واجهت المصاعب في حياتها ، اما الامم التي انتهت وانقرضت فقد ظهرت في ظروف سهلة وعادية وانتهت بسرعة .

وفي هذا المجال يروى عن الرومان انهم كانوا يدخلون في حروب كثيرة ، ولذلك فانهم كانوا يحتاجون الى رجال اشداء ، وعندما كان يولد لهم مولود ذكر كانوا يأخذونه ، ويذهبون به الى الغابة ، ويتركونه فيها لمدة ثلاثة ايام لوحده ، وبعد انقضاء هذه المدة يعودون اليه فان وجدوه حيا يرزق اخذوه ، والا دفنوه هناك ، اما فلسفة عملهم هذا فانهم يبررونه بانهم يحتاجون الى رجال اشداء ، فالطفل الذي يستطيع ان يقاوم الحر والبرد واذى الحيوانات لمدة ثلاثة ايام فانه يستطيع ان يكون قائدا حربيا ، وعسكريا قوياً .

وهكذا فان الانسان المؤمن الذي لا يستطيع ان يقاوم صعوبات الحياة لا يمكن ان يستمر في ايمانه ، لان اهمية الايمان تكمن في مقاومة صعوبات الحياة .

ولا يغيب عنا ، ان كل انسان مولود على الفطرة كما قال ـــ تعالى ـــ : «**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك**

الدين القيم»[1]، غير ان الانسان المؤمن لا يثبت ايمانه الا عندما يواجه الصعوبات، فالانسان الذي لا يبتلى بالصعوبات لا يستطيع ان يعرف هل إنّه مايزال مؤمنا ام لا، فهو لم يدخل الامتحان بعد، ولذلك فاننا لا نستطيع ان نطلق صفة الايمان عليه الا اذا واجه الصعوبات، واثبت قدرته، كما يقول ـ تعالى ـ:

«ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم»[2].

الجهاد لا يعني القتال بالضرورة:

وللاسف فان البعض من الناس يزعم ان الجهاد هو القتال، في حين ان هذا التصور خاطىء، فالقتال منفور منه أساساً في القرآن، وكلمة القتال جاءت للتعبير عن الحرب كما قال ـ تعالى ـ: **«وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير»**[3]، **«يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال»**[4]، اما الجهاد فهو اشمل من القتال، فالجهاد لا يختص بساعة المعركة ولا ساحتها، بل ان مفهومه يتجسد في كل وقت ومكان وفي كل حقل، ومعناه كما يقول المفسرون واللغويون هو بذل الوسع من الجهد؛ اي ان تبذل كل جهدك؛ وكما ان هذا المعنى يصدق في الحرب فانه يصدق ايضا فيما قبلها وبعدها، فكما يصدق في ساحة

---

(١) سورة الروم /٣٠

(٢) سورة محمد /٣١

(٣) سورة آل عمران /١٤٦

(٤) سورة انفال /٦٥

القتال ، فانه يصدق ايضا على الحوزة العلمية او اي مشروع اخر، كما انه من الممكن ان يتجسد لدى الرجل ولدى المرأة في نفس الوقت ، كل بقدر وسعه ، وفي حدود مساحة عمله .

ونحن الان نحتاج الى الرساليين الذين يواصلون العمل الدؤوب والمستمر ليل نهار، نحن نحتاج الى ذلك الانسان الذي يطوي برنامج السنة خلال ستة اشهر، نحتاج الى الرجل الذي يعمل في كافة ابعاد حياته ، ولا يؤطر نفسه في بعد معين ؛ نحن في امس الحاجة الى العالم الخطيب ، والخطيب الكاتب ، والكاتب المفكر، والمفكر الاداري ، والاداري القائد ، والقائد الخبير بالحياة ... وباختصار نحن بحاجة الى كتلة من النشاط والتحرك .

ولنسأل انفسنا : لماذا سبقتنا الامم الاخرى ؟ ولماذا تزداد الهوة اليوم بين ما يسمى بالبلاد المتقدمة ، وما يسمى بالبلاد المتخلفة ؟ هل السر في ذلك إيمانها ، أم تضحياتها ؟

اذا دققنا في الامر اكتشفنا ان السر في ذلك يعود الى مواصلة الجهد ، والعمل ، وهذا هو الطريق الوحيد لتقدمنا ، اذ لابد ان يتحول كل واحد منا الى كتلة من الطاقات والقدرات ، وذلك من خلال بذل الجهد ، وتنفيذ برنامج جهادي مكثف .

الصبر وآثاره الايجابية :

وبطبيعة الحال فان هناك عقبات وعراقيل تعترض طريق

العمل، فلابد لنا من الصبر الذي لا يعني ان تصبر في السجن ــ مثلا ــ فهذا هو اضعف انواع الصبر، بل المراد من الصبر هو الصبر العملي، وان لا نتعجل النتائج، فقد نزرع الان لنحصد بعد عشرين عاما.

وفي هذا المجال يروى عن موسى بن عمران(ع) انه أتى ذات يوم الى قصر فرعون هو واخوه هارون لابسا ملابس الرعاة وبيده عصاه فمنعهما الحراس من الدخول بحجة ان فرعون كان مشغولا، فذهبا ثم أتيا في غد ذلك اليوم، ولم يسمح لهم بالدخول ايضا وهكذا استمرت هذه الحالة بهما حتى انقضت سنتان بأكملهما، وفي احدى المرات كان فرعون جالسا، فسمع لغطا على الباب فاستفسر عما يجري فأخبر بان هناك راعيين يأتيان الى بابه منذ سنتين، وقد كان فرعون في تلك اللحظات في حالة فرحه ومزاحه، فامر ان يدخلا لكي يستهزىء بهما، ثم دخلا واذا بموسى واخيه(ع) يبلغانه رسالة الله ــ تعالى ــ، واذا بالعصا تتحول الى ثعبان، واذا بفرعون يخر صعقا من رؤيته لهذا الثعبان!، وقد حدث كل ذلك بفضل صبر موسى واخيه(ع)، وعدم يأسهما، واصرارهما على المضي في طريقهما، وهذا هو الصبر الحقيقي.

وهكذا فان الصبر هو ان تقاوم جزع النفس، وان لا تكون هلوعا، ولا تتعجل النتائج. والصبر لابد ان يكون ملازما للجهاد مهما طال، ولنعلم ان معادلات اعداء الله لابد ان تتحطم، وتتلاشى، وتنقلب عليهم، كما يشير الى ذلك بصراحة قوله ــ تعالى ــ: **«ان**

الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط اعمالهم»[1].

الكفر ومعادلة سقوطه :

وقد بين الله ــ تعالى ــ في هذه الاية معادلة الكفر، والعداء للرسالة من خلال بيان المفردات التالية :

١ ــ الكفر.

٢ ــ التصدي لرسالة الاسلام والصد عنها.

٣ ــ معارضة القيادة الرسالية.

٤ ــ تبين الهدى لهم.

واذا تكاملت هذه المفردات والشروط فان الله ــ تعالى ــ سيحبط عمل الكفار، وسينزل عليهم نقمه.

بعد ذلك يقول ربنا ــ عزوجل ــ :

«فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم، ولن يتركم اعمالكم»[2].

فهل يخشى من يكون الله ــ تعالى ــ معه ؟

ومن الطريف ان نذكر هنا ان القرآن الكريم لا يستخدم كلمة

---

(١) سورة محمد/ ٣٢

(٢) سورة محمد/ ٣٥

(لا) في قوله تعالى : «**ولن يتركم اعمالكم**» ، بل يقول : (لن) لان الكلمة الاخيرة اكثر قاطعية وثباتا ، فلنقم بعملنا الرسالي فان وراءنا من يتابع مسيرتنا ، ولنعلم ان اعمالنا هذه لا يمكن ان تذهب سدى ، ولا يمكن ان تنتهي ، ولنعمل ، ونجاهد ، ونصبر لكي نرى نتائج وثمار عملنا .

اننا نعيش الان اوضاعاً نحتاج فيها الى الجهاد والصبر، والعمل بكثافة (الجهاد) ، وباستمرار (الصبر) ، واذا ما طبقنا هذين الهدفين الاساسيين من خلال تجشيم انفسنا المشاق والصعوبات فاننا سنصل الى النتائج في اقصى سرعة ممكنة .

بصائر الوحي
ومسؤولية التطبيق

(١) دور البصائر القرآنية في اصلاح اوضاعنا
(٢) السبيل الى تطبيق القرآن على واقعنا
(٣) بصائر الوحي ومسؤولية التطبيق
(٤) السبيل الى تجاوز العجز الحضاري

دور البصائر القرآنية
في اصلاح اوضاعنا

من البديهي ان تصورات الانسان نابعة من رؤيته الى الحياة ، فما من نية ، وما من تصور، وما من عمل يقوم به الانسان الا ضمن اطار رؤيته العامة الى الحياة ، او في اطار فلسفته التي يؤمن بها .

وما من شك ان رؤية الانسان المؤمن نابعة من القرآن الكريم ، ولذلك فان سلوكه وتصوراته ومواقفه في الحياة ترتبط كلها بهذه الرؤية ، وتتفاعل في اطارها ، في حين ان تصرفات وتصورات الانسان الجاهلي تنطلق من فلسفته الخاطئة ، ونظرته المنحرفة الى الحياة ، وهذا ما يميز الانسان الرسالي المؤمن والصادق عن الانسان الجاهلي المنافق او ذلك الذي لم يدخل الايمان قلبه بشكل كامل .

وتحضرني في هذا المجال آيات كريمة من سورة الاعراف ، وهي من غرر آيات الذكر الحكيم التي اكدت عليها بعض النصوص ، والتي تكشف لنا الرؤية العامة تجاه الحياة ، وهذه هي الايات :

«ان ربكم الذي خلق السموات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين * ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها ، وادعوه خوفا وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين» [1].

وبالطبع فان هذه الايات ليست الوحيدة في هذا المجال ، فالقرآن كله يكاد يكون رؤية وبصيرة وهدى للانسان ، ومن ثم فان آياته الكريمة تعطي للانسان التصورات الصحيحة والمواقف السليمة .

الرؤية الجاهلية للحياة :

والايات التي نحن بصددها تبين اربعة بنود فيما يخص رؤية الانسان تجاه الحياة من حوله ، ولكم قبل ان نبين هذه البنود الاربعة لابد ان نوضح الرؤية المقابلة والمعاكسة للرؤية القرآنية ، الا وهي الفلسفة الجاهلية ؛ الجاهلية التي صاغت لنفسها فلسفة شبه متكاملة منذ الحضارة الهيلينية ومن بعدها وريثتها الحضارة الرومانية ، حتى وصلت تلك الرؤية والفلسفة الى ما يسمى بـ«الحضارة الاوروبية الحديثة» .

ان هذه الرؤية تقول بأزلية الكون ، لان علة الكون الحقيقية هي

---

(١) سورة الاعراف /٥٤ــ٥٦

الله، والله علة تامة، والعلة التامة لا تنفصل عن معلولها، ومعلولها يتمثل في (العقول العشرة)، ثم عالم المجردات، ثم عالم الماديات، وهذه العوالم لابد ان تكون أزلية.

وقائل هؤلاء في القرن التاسع عشر يرى ان الكون عبارة عن شعلة متقدة كانت، ولا تزال، ولن تزول، وبموجب هذه الرؤية فان من المستحيل حدوث التحولات والتطورات في هذا الكون على اعتبار ان الازل لا يتغير، فينعدم اثر الزمان لانه انما يتأثر بالتطورات واذا لم يكن هناك تطور حقيقي في شيء فكيف يمكن ان نتطور فيه من حيث الزمان؟

الرؤية القرآنية للحياة:

هذا في حين ان البصيرة القرآنية تقول ان الله ــ عزوجل ــ هو رب السماوات والارض: **«ان ربكم الله الذي خلق السماوات والارض»**[1]، فالله اولا يربي الانسان، ويربي الكون، وهو في نفس الوقت ــ الذي يعطي فيه للكون تكامله وتطوره، وبالتالي يبارك له في وجوده، فانه يفعل مثل ذلك بالنسبة الى الانسان.

وانطلاقا من هذه الرؤية فان الزمان هو جزء من خلقه السماوات والارض، لانه ــ تعالى ــ يقول: **«في ستة ايام»**، فهو لم

---

(١) سورة الاعراف /٥٤

يخلق الكون مرة واحدة، ولا يهمنا في هذا المجال ان نعرف هل ان هذه الايام هي ايام الاخرة ام ايام الدنيا، ام هي ايام ترتبط بالخلقة بقدر ما يهمنا ان نعرف ان الزمان جزء من الخلقة، وان الله ـ تعالى ـ هو رب يمنح الخلقة للشيء طورا فطورا، وخلقا من بعد خلق، بل لحظة بلحظة، هذا اولاً.

وثانيا؛ ان الله ـ تعالى ـ هو المهيمن على الكون، وهو الذي خلق الاشياء في ستة ايام، فالاشياء تعود اليه في كل لحظة، فهو الذي يعطيها خلقها بشكل مستمر، ولو سحب ـ تعالى ـ عطاءه هذا لحظة واحدة فان الكون سينعدم مرة واحدة، ولو لم يمسك الله بيد قدرته السماوات والارض لزالتا وفسدتا وبطلتا ولم يبق منهما شيء.

وثالثاً؛ هناك امر الهي بالحركة، فالكون مأمور من قبل الله بالتحرك، لان الزمن جزء من هذا الكون، فالحركة ايضا هي من هذا الكون. فانظروا الى الفرق الشاسع بين هذه الرؤية وبين الرؤية التي تقول ان الكون كان شعلة وسيظل كذلك، فهذه الرؤية لابد ان تعدم فلسفة الحركة في الكون، وتلك الرؤية لا تنفصل عن الحركة، وهذا هو قوله ـ تعالى ـ: **«يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا»**[١].

وهكذا فان ملكوت الله شامل لكل شيء؛ الشمس العملاقة التي تسبح في الفضاء، ولو شاء الله لاخمدها، والكون بما فيه من

---

(١) سورة الاعراف /٥٤

مجرات ومنظومات التي لا يرقى اليها حتى خيال الانسان.. كل ذلك محكوم ومسخر بامر الله ـ تعالى ـ، فلا تستطيع ان تتحرك شعرة الا بأمره ـ تعالى ـ، لان وجودها منه، وامرها بيده، كما اشار الى ذلك قوله ـ تعالى ـ : **«والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره»**[١]، وهذا هو البند الرابع في الرؤية القرآنية التي تبصر الانسان بعمق حياته، وحياة ما حوله من الاشياء.

فالرؤية هي رؤية التكامل في الكون؛ التكامل غير الذاتي او التكامل الغيري؛ اي ان الله ـ تعالى ـ هو الذي يبارك في امر السماوات والارض، فيمنحها الخلقة، وينعم عليها بالنعم. فنحن نؤمن بأن الكون في حالة تطور وتكامل ولكن ليس بصورة ذاتية، ولا بسبب التناقض في اجزاء الكون، بل لان الله ـ تعالى ـ يشاء ذلك، ولانه هو الذي يعطيه هذا التكامل، وتلك النعم.

وانطلاقا من هذه الرؤية المعتمدة على البصائر السابقة الذكر هي: بصيرة الخلق والزمن، وبصيرة الهيمنة، وبصيرة الحركة، وبصيرة البركة، لابد ان يجد الانسان مجالا للتحرك، فما هو مجال تحرك الانسان، وفي اي اطار يتكامل، وما هو الكمال الحقيقي له؟ هذه التساؤلات يجيبنا عنها القرآن الكريم في قوله: **«ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين»**[٢]. فأي نوع من الطغيان

---

(١) سورة الاعراف /٥٤

(٢) سورة الاعراف /٥٥

والاعتداء على حقوق الاخرين مرفوض في هذا الكون، فللكون اله واحد، ورب واحد، وخالق واحد، وسلطان واحد هو الله الاحد الصمد، لا يشاركه في خلقه احد، ولذلك ينبغي علينا ان لا نفكر في الطغيان بل بالمزيد من التضرع لله ـ تعالى ـ.

فلابد ان يخشى الانسان ربه، لان الله قادر على ان يسلبه كل النعم التي منحه اياها، او ليس الذي ينزل علينا من السماء ماء معينا بقادر على ان يمنع هذا الماء من النزول؟

ثم ان الاية السابقة تصرح بان الدعاء هو سلم تكامل الانسان: «**ادعو ربكم تضرعا وخفية**»، ودعاؤنا ينبغي ان يكون دعاء العمق والضراعة، دعاء الانسان العاجز المسكين الذي لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، ومن دون الشعور بهذه الحقيقة يبقى الانسان طاغيا شاعرا بالاستغناء: «**ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى**»[١]، فان لم تشعر نفسك بذلك امام الله ـ تعالى ـ، وبحاجتك الى ملكوت قدسه وسلطانه ورحمته الواسعة فانك طاغ.

الكون يرفض الطغيان:

وعندما يقول ـ تعالى ـ: «**انه لا يحب المعتدين**»[٢] فهو يعني ان الطغيان شذوذ في هذا الكون، وان كل ما في هذا الكون لا يحب

---

(١) سورة العلق /٦ ـ ٧

(٢) سورة الاعراف /٥٥

الطغيان، وبالتالي فان الطاغية مرفوض، ولابد ان يخرج من هذا العالم، فمسيرة الكون تسير باتجاه معاكس للطغيان والاعتداء شئنا ام ابينا، لان هذا الكون قائم على اساس العدالة، وهذا هو الموقف الاول، اما الموقف الثاني فيتمثل في قوله ــ تعالى ــ: **«ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها»**[1]، فالله يعطي للارض البركة، والحركة، والنمو، والتكامل بالاتجاه الصحيح، فلا يجوز لك ان تأتي لتفسدها.

ومادمنا عبيدا من عباد الله فلابد ان نتخلق باخلاق الله، ونسير على نفس الخط الذي امرنا بالسير عليه، فكما انه ــ سبحانه ــ يبارك للكون، فعلي انا ايضا ان قوم بالاحسان والاصلاح، فأصلح الارض، واحسن الى اخي الانسان، وهذا هو الموقف الصحيح، والمنسجم مع ذلك الاطار الذي سبق وان بيناه، فلابد ان نفكر فيما يخصنا، وفيما يخص ارضنا ومجتمعنا ضمن هذه الرؤية المتكاملة، ولابد ان يفكر كل واحد منا بكيفية الاصلاح، ولابد ان تتحرر مواقفنا وسلوكياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من طابع الاستهلاك والافساد الى طابع الانتاج والاصلاح، وتتحول مواقفنا من اخواننا من حالة الابتزاز والاستغلال الى حالة الاحسان والعطاء والايثار.

اما بالنسبة الى بعضنا البعض لابد ان يكون همنا الاحسان، والتفكير في كيفية تنمية مواهب اخواننا، وتوجيههم الى الخير، وهم

---

(١) سورة الاعراف /٥٦

بدورهم يجب ان يفكروا فينا ، ولنعلم اننا عندما نرى انفسنا مسؤولة عن اي فقير يتسكع في هذه الارض ، وعن اي خراب يوجد في مساكن غيرنا ، وعن اي انحراف وفساد في مجالات المجتمع ، فاننا سنفجر طاقاتنا ، اما اذا فكرنا في ان نتطفل على الناس ، ونعيش على جهودهم ، ونستغلهم ، فاننا سنكون مصداقا للاية الكريمة التي تقول : **«لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس»** [١].

ان الانسان الذي يستغل الاخرين يعيش كسولا دائما ، لانه يرغب ان يجلس ويفتح فمه ليأتي الناس اليه بالطعام ، ويستخدم في هذا المجال وسائل النفاق والكيد والكذب والدجل من اجل تحقيق مصالحه ، فتنحرف كل اخلاقياته ، في حين ان الذي يريد ان يعطي للناس ، ويؤثرهم على نفسه ، فان اخلاقياته ستكون نزيهة .

(١) سورة البقرة /٢٧٥

السبيل الى تطبيق القرآن على واقعنا

كلما طرأت على الزمن التحولات والتغيرات كلما تعاظمت الفجوة بين الفكر وبين التطبيق العملي لان هناك منهجين ينبغي ان يعرفا قبل الاستفادة من الفكر؛ منهج يؤدي الى الفكر ذاته ، وآخر ينتهي الى تطبيقه على الواقع الخارجي .

في الفقه ــ مثلا ــ هناك منهج لتطبيق الحكم الشرعي على الواقع الخارجي وهو ما يهتم به القضاء الذي هو علم تطبيق الفقه على الواقعيات الخارجية .

وبالنسبة الى المسلمين اليوم هناك تطورات وتغيرات هائلة تعرضت لها حياتهم تستدعي وجود علم يمكن ان نسميه (علم تطبيق الاسلام)، وهذا العلم لابد ان يهتم ببيان الجوانب التي ينبغي ان يطرح الاسلام فيها لمعرفة كيفية تطبيق احكامه عليها .

والقرآن الكريم يطرح بصائر للناس، ويبين لهم الاحكام

الشرعية ، ولكن هل يمكن تطبيق كل الايات القرآنية على الحوادث التي تقع ؟ طبعا لا ، فكل حادثة تستدعي تطبيق آية معينة من آيات القرآن .

والسؤال المطروح هنا : ما هو السبيل الى معرفة المجال الذي تطبق فيه كل آية ؟ وعلى سبيل المثال كيف نطبق عبر التأريخ التي يبينها القرآن من حقبة الصراع بين موسى وفرعون ، او من حقبة الصراع بين ابراهيم وطاغوت زمانه نمرود ، على ظرفنا الذي نعيش فيه الان ؟

ترى في اية حقبة تأريخية نحن الان ، هل حياتنا تشبه حياة قوم شعيب ام عاد ام ثمود ... وما هي السمات البارزة في حياتنا لكي نطبق عليها ما يشابهها من الاحكام التي جاءت في ظروف مشابهة ؟

منهاج فهم تطبيق القرآن :

من اجل ان نهتدي الى الاجابة على هذه التساؤلات ، وبالتالي من اجل ان لا تبقى فجوة بين واقعنا الخارجي وبين القرآن الكريم ، لابد ان نتبع تفاصيل المنهج التالي الذي هو منهاج فهم تطبيق القرآن .

ان اول وابرز موضوع في هذا المجال يتمثل في كيفية فهم الحياة والزمان ، وقد كان علماؤنا وفقهاؤنا عبر التأريخ يهتمون بمتابعة وملاحقة الحوادث التي تقع في حياتهم انطلاقا من ايمانهم بالمسؤولية تجاه هذه الحياة ، وانطلاقا من قول الرسول الاعظم (ص) : «من

اصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم» .

وبداية الاهتمام هي معرفة الواقع ، فانت لا يمكنك ان تهتم بشيء لا تعرفه ، فكيف تهتم بأمور المسلمين في حين انك لا تحيط بها علما ؟، وعلى هذا فان الاهتمام بامور المسلمين واحوالهم يستدعي اولا وقبل كل شيء معرفة تلك الامور والاحوال ، والحديث الشريف يقول : «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس» .

وهنا تفسيرات عديدة لحياتنا وللعصر الذي نعيشه ، فهل هو عصر الالكترون ام عصر الذرة ، وهل بلداننا هي بلدان متخلفة ام نامية ام متقدمة ، وما هي مشاكلنا ، وما هي ميزانيات بلادنا بالقياس الى ميزانيات البلدان الاخرى ، وما هي الشركات والمصانع التي نتعامل معها ؟

اهمية معرفة الواقع :

نحن الان نستخدم في حياتنا وعلى نطاق واسع الاجهزة الحديثة المختلفة ، او لم نسأل انفسنا ما هي هذه الاجهزة ، ومن الذي صنعها ، وهل نستطيع ان نصنع مثلها ؟

قبل فترة قرأت في تقرير عن شركة من الشركات الاميريكية تدعى شركة (آي بي ام) ان ميزانيتها تبلغ الف مليار دولار؛ أي ما يعادل ثلاثين ضعف ميزانية دولة من الدول النامية لمدة سنة كاملة .

وبناء على ذلك علينا ان نعرف العصر الذي نعيش فيه لكي

نستطيع تطبيق الاسلام، كما ولابد ان نعرف تعاليمنا الدينية لكي نستطيع تفسير العام منها تفسيرا يرتبط بزماننا هذا.

وعلى سبيل المثال فاننا كمسلمين، ننتمي الى حزب يسمى «حزب الله» اشار اليه ــ تعالى ــ في قوله: **«الا ان حزب الله هم المفلحون»**[1]، والدعاء الشريف في قوله: «اللهم اجعلني من حزبك فان حزبك هم المفلحون»، وفي هذا المجال علينا ان نعلم ان حزب الله له مواصفات معينة كالحب في الله، والبغض فيه، والعزة على الكافرين، والذلة للمؤمنين، والصدق في المواقف، والصبر في البأساء والضراء، والايمان بالقضية والشجاعة في الدفاع عنها.

وبعد فان هذه هي مواصفات حزب الله كما جاءت في القرآن الكريم، وفي النصوص المفسرة له كوصية النبي (ص) لابي ذر، ووصية الامام علي (ع) لولده الحسن (ع)، ووصية الامام الحسن (ع) لجنادة بن امية... ففي هذه الوصايا تفاصيل للانتماء الايماني، والولاية الالهية التي تتجسد في تجمع ايماني متكامل.

والسؤال المطروح هنا هو: هل من الممكن ان نكتب بلغة عصرية التفاصيل والسمات التي جاءت في تعريف حزب الله؟ ترى كيف اعيش في هذا الجو الايماني، وكيف انمي في نفسي هذه الصفات؟

---

(١) مجادلة /٢٢

مفاهيم تغيرت مصاديقها :

مثل هذا التساؤلات ليس من السهولة بمكان ان نجيب عنها ، فهناك الكثير من التجمعات التي تدعي انها اسلامية وايمانية وانها في اعلى مراحل الجهاد ، ولكنها تتجاهل تطبيق ابسط تلك القوانين لان اللغة اختلفت الان ، ولان الشجاعة التي ارتسمت في اذهاننا هي شجاعة الحروب فحسب في حين انها لا تمثل كل الشجاعة ، فالحروب الان ليست بالسيف ، وليست بالحضور في خنادق القتال ، والمواجهة المباشرة مع الاعداء .

لقد اختلفت الظروف الان ، فقد تكون الشجاعة الان متمثلة في ان يركب الواحد منا سيارة ليقتحم بها وكرا من اوكار الاعداء ضمن خطة مرسومة ، وقد يتطلب الظرف منك ان لا يكون مظهرك يوحي بانك من المؤمنين المجاهدين .

وقد تتجسد الشجاعة اليوم في ان تبقى في مؤسسة من مؤسسات الاعداء ، وتتكتم على هذا العدو لفترة طويلة ، وقد تكون الشجاعة كلمة صادقة في مواجهة ظالم طاغ كما قال النبي (ص) : «إن افضل الجهاد كلمة عدل عند امام جائر» ، وقد تتجسد الشجاعة في ان تواجه صديقك بانتقاد بناء على الرغم من علمك بانه سيهجرك .

كل تلك الحالات هي مظاهر للشجاعة ، لان الشجاعة لا يمكن ان تقتصر على التحدي المادي الملموس ، فالشجاعة بالنسبة الى

الاسلاميين هي ان يرسموا ستراتيجية طموحة وشجاعة ، وان لايضعوا ايديهم في ايدي الغرب او الشرق ، وان يتوكلوا على الله ــ تعالى ــ .

والشجاعة قد تتمثل ايضا في الصبر، فالكثير من الناس يزعمون انهم شجعان ولكن شخصياتهم في الحقيقة شخصيات ضعيفة فتراهم ينخدعون بالاعلام ، واذا مدحتهم بكلمة تشجعوا وتقدموا ، اما اذا ذموا بكلمة تراهم يحجمون ، ويهربون من المواجهة ، وهذه ليست شجاعة ، لان الشجاعة ان تكون شخصيتك قوية صبورة ، وان يكون عملك في سبيل الله مستمرا .

وهناك البعض من الناس يزعمون ان الصبر هو الانتظار البارد وان تجلس في بيتك بانتظار الفرج ، وبانتظار ان يحقق لك الزمان الانتصار، في حين ان الصبر هو ان تتحمل المصاعب ، وتواجه المشاكل بصدر رحب ، فالكثير من الناس يزعمون انهم صابرون ولكنك تراهم ينسحبون وينهارون بمجرد ان يواجهوا المشكلة الاولى ، والبعض الاخر تراه يبرر انهزامه بألف طريقة وطريقة ، مفضلا الامور الثانوية على قضية الاسلام ، صحيح ان الانسان يجب عليه ان يهتم بامور حياته ولكن ليس على حساب الاسلام والعمل الرسالي ، فالوقت الذي يهدره هذا الانسان في الامور الثانوية من المفروض ان يستثمر في سبيل الاسلام وتزكية النفس .

لنسأل انفسنا : لماذا كان علماؤنا الابرار(رض) زهادا في الدنيا ؟ وللاجابة على هذا السؤال نقول انهم لو لم يكونوا زهادا في

الدنيا ، ولو كانوا يهتمون بملابسهم وبيوتهم وكماليات حياتهم لما وصلوا الى تلك المرحلة السامقة من العلم ، فالعلم يقول للانسان : اعطني كلك اعطك بعضي ، ولنعلم اننا لا نستطيع ان ندرك نعمة الا بفقد اختها ، فأنت لا تستطيع ان تدرك نعمة العلم الا اذا تركت النعم الاخرى ، وهكذا كانت سيرة العلماء ، والعاملين في الساحة فقد كانوا يقدمون من انفسهم ، ولا يصبون اهتمامهم على الامور البسيطة ، وهذا هو المعنى الحقيقي للصبر والزهد .

لقد ذكرنا تلك المعاني كمثال على المعاني الاخرى التي تغير تطبيقها في واقعنا الراهن ، فالصبر مثلا اختلف تطبيقه الان عن تطبيقه السابق ، صحيح ان الجوهر لم يتغير ولكن مظهر الصبر، والتطبيق الخارجي له اختلفا الان عما كانا عليه في السابق .

ترى من الذي يحدد هذا التطبيق ، ومن هو الذي اقدر من غيره على معرفة زمانه ؟ ومن الذي يفتي في المسائل والقضايا الحادثة ؟ انهم العلماء بالله ، الامناء على حلاله وحرامه ، شريطة ان يسيروا وفق هذا المنهج ، اي ان يكون امامهم منهج لمعرفة الاسلام ، ومنهج اخر لمعرفة تطبيق الاسلام ، وهذا الشرط يتطلب منهم عملا كثيرا ومتواصلا .

ان الله ــ تعالى ــ يبين بكل صراحة ان الشركاء من دونه لا يهدون الى الحق ، وان الثقافات الاخرى لا تستطيع ان تهدي الانسان الى الحق : «**قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق ، قل الله يهدي**

للحق»[١]، ثم يستأنف ـ تعالى ـ قائلا: «**افمن يهدي الى الحق احق ان يتبع ام من لا يهدّي الا ان يهدى، فما لكم كيف تحكمون**»[٢]، ثم يؤكد ـ تعالى ـ هذه الفكرة في قوله: «**وما يتبع اكثرهم الا ظنا، ان الظن لا يغني من الحق شيئا، ان الله عليم بما يفعلون**»[٣].

اهمية القرآن في فهم الحياة:

بعد ذلك يؤكد ـ سبحانه ـ على اهمية القرآن، ويبين دوره في فهم الحياة قائلا: عز من قائل: «**وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب**»[٤]، فالقرآن يحتوي على برامج واضحة لا ريب فيها، ومع ذلك فلابد لنا من ان نطبقه على واقعنا، من خلال فهم هذا الواقع، وفهم التفسير المناسب لايات القرآن بشكل يجاري ويتناسب مع تطورات الزمن، وتغيرات الساحة.

وهكذا فان باستطاعتنا ان نكتشف القرآن الكريم، وان نعثر فيه على ينابيع غزيرة لفهم الحياة التي نعيشها، وهذه مسؤولية كبيرة علينا ان نتحملها من خلال بذل الجهود الحثيثة والمتواصلة في سبيل تطبيق الاحكام، والعبر، والقوانين، والسنن القرآنية على مفردات العصر الذي نعيش فيه.

---

(١) يونس /٣٥
(٢) يونس /٣٥
(٣) يونس /٣٦
(٤) يونس /٣٧

بصائر الوحي ومسؤولية التطبيق

لابد ان نعرف ان في القرآن احكاما عامة تسمى بـ(البصائر)، وان هناك احكاما خاصة نسميها بـ(الاحكام الفقهية)، وان البصائر القرآنية هي التي تزود الانسان بالوعي للحياة؛ كيف يعيش، ولماذا يحيى، وما هو مخططه العام في حياته؟

القرآن الكريم بصائر واحكام:

ان بصائر القرآن قد لا تعنى بالقضايا الجزئية ولكنها ترسم امامنا الخطوط العريضة؛ بمعنى انها تعطينا وعيا بالسنن العامة التي اجراها الله ــ تعالى ــ في الطبيعة، ووعد ــ وهو صادق الوعد ــ ان لا يغيرها، ولا يبدلها في قوله ــ عز من قائل ــ: **«فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا»** [1].

(١) سورة فاطر /٤٣

وهنا احكام فقهية خاصة تهتم ببعض الجوانب المرتبطة بحياتنا من مثل احكام القضاء، والزنا، وعموم احكام الزواج، والاموال، والصلاة، والزكاة، والحج... وبالرغم من ان القسم الثاني من البصائر القرآنية، اي الاحكام الفقهية، يتمتع بأهمية بالغة باعتباره صادرا من الله ــ سبحانه ــ، الا ان البصائر العامة في القرآن هي التي يجب ان نوليها الاهتمام التام لانها تمثل القواعد العامة، والاصول، والمنطلقات والبواعث.

وبالتالي فاننا اذا تركنا الاصول والقواعد، وجمدنا على الاهتمام بالمسائل الجزئية الجانبية فاننا سوف نفقد الجانبين معا، لان البناء من دون قاعدة لا يستقيم، وكذلك الحياة فانها ستبتلى بنفس المصير ان لم تستند الى قواعد الهية ثابتة وراسخة.

وعلى سبيل المثال فان الصلاة لمن لا يعرف العقائد الاسلامية، ولا يلتزم بالخطوط العريضة في الاسلام، او الصلاة في ظل الطاغوت، وتحت راية الظلم والانحراف والفساد، مثل هذه الصلاة ليست مقبولة عند الله ــ تعالى ــ لان القرآن الكريم يقول: **«انما يتقبل الله من المتقين»** [1]، فعندما لا تكون الحياة قائمة على اساس التقوى فان بناءها سوف يكون على جرف هار.

والتقوى تعني الالتزام العام بمسيرة الاسلام والخط الاسلامي في

---

(١) سورة المائدة /٢٧

الحياة سواء في الاقتصاد ام الاجتماع ام في السياسة، فلو كانت مواقفي غير اسلامية، او كانت مواقفي ازاء الكفار مبنية على الذل والتراجع، وفي المقابل على الانفة والاستكبار على المؤمنين على عكس ما اراد الله ــ تعالى ــ، فبماذا ستنفعني صلاتي وقيامي ؟ واذا واليت اعداء الله، وعاديت اولياءه فما هو جدوى صيامي وتبتلي واجتهادي ؟

ومن مشاكلنا الرئيسية نحن المسلمين اننا بدأنا نولي الاهتمام الاكبر للجوانب الثانوية والقشرية، فافرغنا الاسلام من لبابه، وروحه، ومحتواه، وبدأنا نهتم بالقشور والجوانب التافهة. فكم من ملايين الساعات صرفت من عمر المسلمين في تعيين طريقة المسح على الرأس، وفي البحث في ان القرآن هل هو مخلوق ام حادث، او في بعض البحوث التأريخية التي لا تجدي نفعا، في حين ان القضايا المهمة والمصيرية من مثل تحديد استراتيجية الامة، وتعيين الخطوط العريضة للحضارة الاسلامية، وطريقة تعامل المسلمين مع الواقع المعاصر، وكيفية حل مشاكلهم الاقتصادية، والسياسية والاجتماعية، كل هذه القضايا وغيرها قد تركت واهملت جانبا بتعمد، وسبق اصرار، لان هذه القضايا الجوهرية هي محور الصراع بين الاسلام والكفر.

وهكذا فان المسلمين ابتلوا بهذه الاهتمامات الجزئية والجانبية، وتركوا الاساسيات، ومعرفة حقيقة ان الاسلام اطروحة حياتية، وانه يريد للانسان ان يعيش فوق هذا الكوكب حياة سعيدة كريمة، لكي

تكون حياته في الدنيا وسيلة لتكامله الروحي، ومدرسة لتربيته وتزكيته وبالتالي اعداده للدخول في الجنة، فقد جاء في الحديث الشريف ان «الدنيا مزرعة الاخرة». فالقانون الالهي انما شرع للدنيا، واحكام الشريعة صيغت للحياة.

هل في القرآن الكريم حل لمشاكلنا؟

وعلى هذا فان الاسلام يريد ان تكون هذه الدنيا مهيأة للانسان، ومساعدة لنمو الجوانب الخيرة فيه لكي يصبح هذا الانسان اهلا لدخول الجنة. فلنبحث عن الخطوط العريضة في الاسلام، ولنسأل انفسنا: هل في القرآن الكريم حل لمشاكلنا نحن المسلمين؟

نعم.. لنتمسك بحبل الله الذي بين ايدينا الا وهو القرآن، ولنركب هذه السفينة التي جعلها الله ـ تعالى ـ لنجاة البشرية، ولنستضيء بهذا المصباح.

انني ادعو علماء الدين، والمفكرين، وحملة الاقلام، والخطباء ان يتدارسوا القرآن، ويتفكروا في المعنى الحقيقي للاسلام، وكيف نعود اليه، وكيف نحول حياتنا الى حياة كريمة عزيزة، وكيف نعود الى عظمتنا وامجادنا السابقة، فليتركوا البحث في المسائل الجانبية، وليتدارسوا القضايا الاساسية، ما هي اسباب التخلف، وما هي عوامل النهوض؟ ولماذا نجد بلداننا دائما ومنذ عدة قرون في قائمة البلدان المتخلفة عسكريا، واقتصاديا، واجتماعيا..؟

بين المسلمين وبني اسرائيل :

ان المسلمين عندما تركوا دينهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله كما حدث لبني اسرائيل ، ولذلك يقول النبي(ص) : «ما جرى في بني اسرائيل يجري في امتي حتى انهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» ، ذلك لان سنن الله ــ سبحانه ــ في الامم واحدة .

ولننظر الى قوله ــ عز من قائل ــ في بني اسرائيل «**ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الامر..**»[1] ، فقد منحهم الله ــ تعالى ــ التوراة ، والسلطة ، ورزقهم من الخيرات والبركات الوفيرة حتى تفوقت حضارتهم على الحضارات المجاورة لها ، ثم زودهم الخالق ــ عزوجل ــ بالبينات من الامر؛ اي بالبصائر، والوسائل التي لو اخذ الناس بها لاهتدوا الى الطريق القويم كما يقول ــ تعالى ــ : «**فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم**»[2] .

وعلى هذا فان المقصود من بينات الامر معرفة الحياة ، وبصائر كيفية النهوض وكيفية تحقيق الوحدة ، لان الوحدة هي اهم مطلب في

---

(١) سورة الجاثية /١٦ــ١٧

(٢) سورة الجاثية /١٧

حياة الامم ، فهي تعني وجود قيادة سليمة ، وخلفيات قيمة ، كما يعني ايضا وجود برنامج واضح للتحرك ، ولذلك فان القرآن عندما يقول : **«فما اختلفوا ..»** فانه يقصد انهم تركوا الحكم والنبوة والكتاب ، ونبذوا جانبا بينات من الامر فكانت النتيجة ان اختلفوا .

وبعد بيان قصة بني اسرائيل يحدثنا ــ تعالى ــ مباشرة عن المسلمين فيقول : **«ثم جعلناك على شريعة من الامر»**[١]، وهنا لنقارن بين قوله ــ سبحانه ــ : **«بينات من الامر»** وقوله : **«على شريعة من الامر»** ، ومن خلال التأمل نكتشف ان الامر هنا وهناك شيء واحد وهو الذي يتصل بالقيادة ، والوحدة ، والسياسة ، ونظام الحكم ، وبما يرتبط باساسيات حياة الامة .

ولذلك يقول ــ تعالى ــ : **«فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون»**[٢]، والاية هنا تعني ان على العلماء ان يكونوا القادة ، بعد ان آتاهم الله البينات والشريعة من الامر، فعليهم ان لا يخضعوا لاصحاب السلطة والثروة .

وبطبيعة الحال فان اصحاب السلطة والثروة هؤلاء يجهدون في ملاحقة العلماء وتتبع تحركاتهم ، ويمارسون ضدهم الوان الضغط من الترغيب والترهيب والاعلام المضلل ، ولذلك فان القرآن الكريم يأمر

---

(١) سورة الجاثية /١٨

(٢) سورة الجاثية /١٨

رسوله (ص) والعلماء الذين هم خلفاؤه قائلا : «**فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون**»[1].

ومن هذه الاية نكتشف ان محور عودة المسلمين الى حضارتهم يدور حول هذه النقطة بالذات الا وهي استقلالية العلماء، واستقامتهم، وعدم رضوخهم لاهواء الحكام.

الظلم افراز المجتمعات الفاسدة :

ثم يستأنف السياق القرآني الكريم قائلا : «**انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا، وان الظالمين بعضهم اولياء بعض، والله ولي المتقين**»[2]، وهذه الاية تكشف لنا عن حقيقة هامة جدا لو تعمقنا فيها لردعتنا عن تأييد الظالمين ايا كانوا، وهذه الحقيقة تتكشف لنا عبر البعدين التاليين :

١ ــ ان القرآن الكريم يكشف عن ان للظالمين حزبا، وبذلك فان اي انسان ينتمي الى هذا الحزب سيتحمل كل الوزر الذي يرتكب في هذا التجمع، فالذي يسكت عن الظالم او يؤيده فلابد ان يدخله الله ــ سبحانه ــ مدخله شاء ام ابى.

٢ ــ ان الظالمين يتحول بعضهم الى اولياء للبعض الاخر، وهذا

---

(١) سورة الجاثية /١٨

(٢) سورة الجاثية /١٩

يعني ان التجمع الظالم سوف يقاد من قبل الظالم الاكثر ظلما، ثم يستمر الظلم بالنزول من كل طبقة الى الطبقة التي دونها حتى يصبح كل عنصر من عناصر هذا الحزب ظالما لمن دونه، ومظلوما من قبل من فوقه.

ولذلك لابد ان نعرف ان الحكم الظالم، والسلطة الفاسدة ما هما الا افراز للمجتمع الفاسد، وان سكوتنا، وتراجعنا، واختلافنا مع الاخرين على قضايا تافهة، واهتمامنا بشؤوننا الخاصة ومصالحنا، كل ذلك هو السبب في سيطرة الطغاة وتسلطهم علينا، ولذلك يقول ــ تعالى ــ: «**وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا**»[1]، كما وجاء في الحكمة المعروفة: «كما تكونون يولى عليكم»، وفي هذا المجال ايضا يقول الامام علي (ع): «لا تتركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولى عليكم شراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم».

ضرورة التفتيش عن جذور الفساد:

والمشكلة هنا مرتبطة بنا، ونحن اولى بمعالجتها من غيرنا، فالنظام الفاسد ليس الا تعبيرا عن الفساد في المجتمع، ولذلك فان علينا ان نفتش عن جذور الفساد ونقتلعها، ونبحث عن الاسباب الحقيقية الكامنة وراء سيطرة الحكام الظلمة علينا، ولننظر في سلوكنا ونفكر

---

(١) سورة الانعام /١٢٩

كيف نحوله الى سلوك رسالي لكي يزول هؤلاء الحكام.

ثم يقول ــ تعالى ــ بعد ذلك : **«والله ولي المتقين»** [١]، فالانسان المؤمن المتقي الذي يناهض الظالمين، ويتقي الله، يضمن ــ تعالى ــ له زوال الظلم عنه، لان شجاعته ستكون وسيلة للدفاع عن قضيته وفكرته.

ويستأنف ــ تعالى ــ معقبا على ذلك: **«هذا بصائر للناس»** [٢]؛ اي ان المجتمع البشري بجميع افراده سوف يستفيد من هذه البصائر والرؤى في التفكير.

نحن مدعوون الى تحمل المسؤولية :

وخلاصة القول اننا مدعوون ان نفكر، ونتذاكر، وان نتحمل المسؤولية، ولا نلقي بها على عاتق العلماء وحدهم، فكلنا نحمل علما، وبقدر هذا العلم نتحمل المسؤولية، ولقد امر المؤمنون بالتفكر والتعقل، فلنفكر، ونجعل عبادتنا التفكر والاستلهام من كتاب الله ــ تعالى ــ، ولنطرح على انفسنا الاسئلة الاساسية السابق ذكرها، فهناك البعض منا يهرب ــ للاسف الشديد ــ من محاور الصراع، ليلوذ بالتفكير في القضايا الجزئية.

---

(١) سورة الجاثية /١٩

(٢) سورة الجاثية /٢٠

هذا في حين ان علينا ان نفكر في السبب الذي يكمن وراء تخلف المسلمين رغم ان عددهم يتجاوز المليار انسان ، فلماذا يتحكم بمصيرهم مجموعة من الحكام الظلمة المستبدين ، ولماذا تمتص مواردهم من قبل الغرب والشرق ؟، اذا كان المسلمون خير امة اخرجت للناس فهل اوضاعهم تشير الى هذا الخير؟، ان الشواهد تشير الى ان البلدان الاسلامية هي افقر البلدان في العالم، وان اكبر عدد من الحروب تحدث فيها ، فلماذا آل المسلمون الى هذه الاوضاع المتردية ؟

مثل هذه التساؤلات وغيرها نجد الاجابة عليها من خلال دراسة البصائر والرؤى القرآنية ، وتطبيقها على واقعنا العملي لكي نعمل على ازالة هذه السلبيات وفقا لتلك المقاييس والمعايير القرآنية .

السبيل الى تجاوز العجز الحضاري

القرآن الكريم يبعد الانسان عن افق الماديات ، ويزوده بنظرة بعيدة المدى الى عمق المستقبل حيث النعيم الابدي ، او النار الملتهبة الشديدة الوقود التي لا رحمة ولا مهلة فيها ولا خلاص منها .

وبين هاتين العاقبتين العظيمتين يعيش قلب الانسان المؤمن ، وعبر هذا الافق البعيد ينظر، ولذلك تتعبأ نفسه جهاداً وتضحية وفداء ، ويستعد للموت في سبيل الله في اية لحظة معتبرا أياه أفضل عاقبة ، بل أفضل هدية ونعمة ، فالانسان يصبر عند نزول البلاء ، اما من تواترت عليه النعم فلابد ان يشكر ربه .

وفي هذا المجال يروى عن الامام علي(ع) أنه قال : «قلت يا رسول الله أو ليس قلت لي يوم أحد حيث أستشهد من أستشهد من المسلمين ، وحيزت عنى الشهادة ، فشق علي ذلك ، فقلت لي : أبشر، فان الشهادة من ورائك ؟

فقال لي : أن ذلك لكذلك . فكيف صبرك أذن ؟

فقلت : يارسول الله ، ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر[١].

وهكذا فان الانسان يرتفع الى هذا المستوى الرفيع ضمن أفق القرآن ومنطقه وإطاره . فآيات الجهاد ليست مقتصرة على تلك الآيات التي تبين فلسفة الجهاد وحكمته ، أو تحرض الانسان عليه ، لان إبعاد الانسان عن حياة الماديات ، والتحليق به في أفق المعنويات هما اللذان نقرؤهما خلف كل آية قرآنية ، وهذا هو الذي يمنح الانسان روح الجهاد ، والتضحية في سبيل الله ــ تعالى ــ .

لا مفر من الموت :

ان الحياة ما هي الا موت يطلبك ، وموت تطلبه ، ونحن عادة ما نهرب من سكرة الموت كما يشير الى ذلك ــ عزوجل ــ في قوله : **«وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد»**[٢]، ولكن أين المهرب ؟ فكم حاولنا أن نبتعد عن الموت ، وكم منينا انفسنا بالخلود ، وطول العمر، ومع ذلك فقد جاءت سكرات الموت .

وبين سكرة الموت ، والنفخة في الصور ما لا يعلمه الا الله

---

(١) نهج البلاغة خطبة رقم ١٥٦

(٢) سورة ق /١٩

ـ تعالى ـ من السنين والقرون، الا أن هذه المسافة يختصرها القرآن الكريم في قوله: **«ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد»**[1]، لان يوم الوعيد آت، وكل آت قريب.

ثم يستأنف ـ تعالى ـ قائلا: **«وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد»**[2]؛ لقد كنا غافلين عن هذه الحقيقة، ونحن بالذات الذين نعيش اليوم فوق الارض لابد ان ننام طويلا تحت هذه الارض، ثم ينفخ في الصور فنقف امام رب العزة للحساب، وهناك نرى ما لم نكن نستطيع رؤيته في هذه الدنيا، فنحن الان محجوبون عن الحقائق، ولكن بصر الانسان يتحول في يوم القيامة الى حديد، وحينئذ ينظر الى اعماله وقد تجسدت أمامه.

وهذا ما نستفيده من آيات عديدة في القرآن، ولعل هذه الآية تشير الى هذه الحقيقة أيضاً، فبصر الانسان يستطيع في يوم القيامة ان ينفذ في كل مكان، ليرى حقيقة كل شيء.

الانسان العاقل من يتعظ بالموت:

ويستمر السياق القرآني الكريم قائلا: **«وقال قرينه هذا مالدي**

---

(١) سورة ق /٢٠

(٢) سورة ق /٢١ـ٢٢

عتيد، القيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب»[1]، ان الانسان العاقل عليه ان يستغل هذه الفرصة ليعود الى رشده، ويتذكر ان أمامه مراحل أبسطها الموت، والموت بدوره هو أبسط المراحل في مسيرة الانسان الاخروية.

ان منظر الانسان وهو ينازع سكرات الموت منظر مهيب رهيب، ومن الجدير به أن يتعظ بهذا المنظر طيلة حياته، وكفى بالموت واعظا، اما الذي لا يتعظ بالموت رغم أنه يرى بأم عينيه أحبابه، وأعزاءه، واقاربه يذهبون أمامه، فمثل هذا الانسان لا يمكن أن يتعظ بشيء آخر، لان قلبه أقسى من الحجر.

فلنلين قلوبنا بالذكر والدعاء والتسبيح والانابة والبكاء، فالله ــ سبحانه وتعالى ــ يحب من عباده ــ وخصوصا الشباب منهم ــ التضرع والخشوع.

ان هذا الاطار هو اطار معرفة الدنيا والآخرة، ومعرفة الله ــ تعالى ــ خالق الدنيا و الاخرة، وهذا الاطار يخلق في الانسان روح الجهاد والتضحية، وروح العمل الدؤوب في سبيل الله ــ عزوجل ــ.

الجهاد الحق:

والجهاد الحق يعني من جهة مجاهدة النفس والشيطان والشهوات

---

(١) سورة ق /٢٣ــ٢٥

ومن جهة اخرى محاربة أعداء الدين . ونحن الان نعيش رحلة الجهاد ، ولو ان المسلمين عرفوا القرآن حق معرفته ، وعاشوا روحه ، واقتبسوا نوره ، وتدبروا آياته لما وصل بهم الحال الى ما هم عليه الان رغم ان عددهم يتجاوز الان المليار الا ان المسكنة تحيط بهم من كل جانب .

ونحن عندما نرى اقتصادنا متخلفا ، وصناعتنا وتكنلوجيتنا متخلفة ، بل ان حياتنا كلها تعيش حالة التخلف فهل يمكن ان نفكر في مقارعة الصغاة ونحن محتاجون اليهم ، ولابد ان نشتري كل شيء منهم من قبيل الصواريخ والطائرات ، والاجهزة الالكترونية ، بل حتى الادمغة نستوردها منهم ؟!

وهكذا فاننا نعيش عصر التخلف ، وهذا التخلف سيستمر حتى يأتي دور الاسلام الحق الذي هو اسلام القرآن ، والجهاد ، والتضحية في سبيل الله ــ تعالى ــ الاسلام الذي يأمرنا قائلا : **«استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم»**[1] ، الاسلام الذي يرفع الانسان من مستوى النظرة المادية الضيقة الى مستوى النظر الى الاخرة .

لابد ان نعود الى هذا الاسلام الذي يقول لنا بصراحة : **«واعدوا لهم ما استطعتم من قوة»**[2] ، فاين تلك القوة العسكرية الاسلامية ، أين الصناعات الحربية التي نستقل بها عن الاستكبار، بل اين

(١) سورة انفال /٢٤

(٢) سورة انفال /٦٠

صناعتنا وزراعتنا والى متى التخلف ، والاعتماد على مجموعة براميل نفط نبيعها الى الغرب لتتكرس تبعيتنا له ؟!

ان الاسلام يقول لنا : من تساوى يوماه فهو مغبون ، انه يأمر المسلمين ان تكون أوضاعهم أفضل ، وكلمتهم اعلى ، وان لا يكون للكفار عليهم من سبيل ، فأين هو هذا الاسلام يا ترى ؟

انني شخصيا يائس من الانظمة فلو كان بأمكانها ان تفعل شيئا لفعلته حتى الان ، ولو كانوا صادقين في شعاراتهم لحققوا جزء منها على الاقل ، ولما تردت اوضاعنا يوما بعد اخر ، ورجاؤنا الحقيقي في الله ــ تعالى ــ اولا ثم في هذه الشعوب المؤمنة . فكل واحد منا لابد ان يراجع حساباته من جديد ، ويفكر في مستقبل امته ، فمن لم يهتم بامور المسلمين فليس بمسلم .

وعلى هذا فان الاهتمام هو بداية المسيرة التغييرية ، فكل واحد منا يجب عليه ان يفكر في امته وفي تخلفها في جميع جوانب حياتها ، وكيف نعيد امتنا هذه الى سابق مجدها ، فالمهندس المسلم الذي يذهب الى الغرب لابد ان يفكر كيف يعود بافضل العلم والتجربة من الغرب ، وهكذا الحال بالنسبة الى اساتذة الجامعات ، والطلاب ، والعمال والفلاحين ، فالعامل والفلاح ينبغي ان يفكرا في مستقبل امتها ، فالعامل الذي يفكر في زيادة الاجور ، والفلاح الذي تكون الراحة هي همه مسؤولان عن تخلف الامة .

اننا جميعا مسؤولون عن هذه النهاية التي آلت اليها امتنا ، فلابد

ان نعود الى الاسلام ، ونستلهم منه روح التضحية والفداء .

واجب الحركات الاسلامية :

والحركات الاسلامية التي تعتبر اليوم الطليعة لتحرك الامة الاسلامية لابد ان تستشعر المسؤولية ، وتعمل بواجبها المتمثل في اسقاط تلك الانظمة في أسرع وقت ممكن ، وأن تستغل هذه الظروف لتوعية الجماهير، والا فان الجماهير ستتعود على حالة الذل والجمود شيئا فشيئا ؛ فتنسى امجادها ، وتنسى ان الواحد منها كان في يوم من الايام بامكانه ان يهزم جيشا من الكفار، ويغيب عن بالها ان الله ــ تعالى ــ قد سبق وان نصرها بالرعب ، ووعدها بالنصر اذا توكلت عليه ، وطبقت مناهج كتابه .

وهكذا لابد ان يتسلح شبابنا بالشجاعة ، ولابد ان يتدرب كل واحد منهم على المهارات العسكرية من خلال التدرب على السلاح ، ولابد ان يصبح الواحد منا كعشرة من اعداء الله ، كما ويتعين علينا ان نعلم الشعوب كيف تقاوم الطغاة ، ولابد ان ندخل الرعب في قلوبهم اينما كانوا ، وان لا نخشاهم ، ولا نخاف الموت في سبيل الله ــ تعالى ــ ، فمن خشي الموت فانه ميت فعلا .

ولنعمل على ان نستقل بصناعاتنا حتى لو كلفتنا الصناعة المحلية اضعاف ما نشتريه من الخارج ، المهم ان نصنع محليا .

وهكذا لابد لنا من ان نقوي اقتصادنا ، ونسحب ارصدتنا من

الخارج ، ونستثمرها في داخل بلداننا في مجال الصناعة والزراعة ؛ فلماذا نبقي ارصدتنا في بنوك أميركا هذه البنوك التي تدعم الصناعات الاميريكية التي تديرها الايدي اليهودية ، في حين لا نوظفها في بلدان اسلامية فقيرة من مثل السودان وبنغلادش . وشمال أفريقيا ؟

ان شعوبنا هي التي ينبغي ان تقرر مصيرها بيدها ، وهي المسؤولة عن تصحيح الاوضاع وذلك من خلال العودة الى القرآن الكريم ، لان هذا الكتاب هو أطار حضارتنا ، ونورها ، ومستقبلها ، فلابد من ان نرجع الى آيات القرآن آية آية ، ونطبقها جميعا دون ان نستثني آية واحدة منها .

وفي اطار تطبيق القرآن وفهمه ، والاستنارة بهدى احكامه وتعاليمه وارشاداته ، والعمل بآياته الكريمة ، سوف نعيد بإذن الله ــ عزوجل ــ أمجاد حضارتنا التليدة ، وننتصر على قوى الاستكبار ، ونكون لانفسنا كيانا مستقلا مرهوب الجانب .

القرآن حكمة الحياة

(١) حكم القرآن
(٢) المنهج القرآني والعمل الرسالي
(٣) القرآن منهج التكامل الانساني
(٤) القرآن والحقائق الكبرى

حكم القرآن

ليس القرآن الكريم كسائر الكتب السماوية الاخرى التي امتدت اليها يد التحريف من حذف واضافة ، واصبحت من الكتب المنسية التي تعيش على هامش الحياة ، بل ان القرآن هو كتاب عموم الحياة سواء الحياة الدنيا ام الاخرة .

فكما ان القرآن هو كتاب الاخرة فانه قبل ذلك كتاب الحياة الدنيا ، فالحكمة القرآنية لا تفصل بين الحياتين ؛ الاولى والاخرة اللتين تكمل احداهما الاخرى ، كما جاء التأكيد على ذلك في الحديث الشريف : «الدنيا مزرعة الاخرة» .

القرآن كتاب حياة :

وعلى هذا فان القرآن ليس كتابا للموتى بل هو كتاب للاحياء لكي يتزودوا به في حياتهم ، ويستثمرونه لحين الموت وما بعده ؛ اي

ان فيه زاد الدنيا والاخرة، وزاد القرآن هو ما فيه من برامج ومناهج الهية تنظم الحياة وشؤونها، وتهيء الانسان في نهاية المطاف لاستقبال الحياة الاخرى بما يسعده، ويخلده في نعيمها الابدي.

ونحن ـ كمسلمين ـ من الواجب علينا تلاوة هذا القرآن، وتبصر معانيه، وتدبر آياته، وبالتالي تطبيق ما رسم لنا من برامج ومناهج ومفاهيم حياتية خطوة بعد خطوة حتى نبلغ هدف الكمال الذي يريده لنا القرآن في هذه الحياة، لنخرج منها بعظيم الثواب والاجر الالهيين من خلال طاعة ما امرنا الله ـ تعالى ـ به، والانتهاء عما نهانا عنه.

فالذي لا يتلو القرآن بتبصر وتدبر، ولا يعمل وفق البصائر والمفاهيم القرآنية فانه لن ينال الثواب لا في دنياه، ولا في عقباه، وفي الحديث الشريف اشارة الى هذا المعنى: «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه»، ولعل اكثر ما وصف القرآن به المؤمنين هو كونهم تالين لكتاب الله حق تلاوته، ومتدبرين لاياته.

كيف ننتفع بالقرآن في حياتنا؟

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف ننتفع بالقرآن، ونستثمره في حياتنا؟ وللجواب على هذا السؤال المهم نقول: ان الحياة الدنيا ـ كما هو الحال في الحياة الاخرى ـ بحاجة الى خريطة متكاملة يتضح من خلالها المسار الصحيح، ويتجنب ما فيها من

مهاو، ومسالك خطرة، وبدون اتباع هذه الخريطة، والاهتداء بدليلها، فان السائر في الحياة يكون حاله كحال من يسير وسط حقل من الالغام سيرا عشوائيا دون معرفته بمواقع هذه الالغام.

فالقرآن هو بمثابة خريطة هذه الحياة المحفوفة بالاخطار، وعدم الاهتداء بهذه الخريطة، واتباع ما جاء فيها من توجيهات وارشادات سيوقع الانسان في منزلق السقوط والشقاء في الدنيا والاخرة.

والقرآن هو ينبوع الحكمة الثر، وفيه ضالة الانسان في البحث عن السعادة، والامن، والسلام، والعيش الهانيء الرغيد في الحياة، وهو الوسيلة التي ينتقل بها من السعادة المؤقتة في هذه الدنيا الى السعادة الابدية في الاخرة، فما اكثر خسران ذلك الذي يجعل بينه وبين القرآن حجابا، فلا ينتفع به، ولايهتدي بهداه، ولا يأخذ بصراطه المستقيم، فيخسر حينئذ دنياه واخرته وهذا هو الخسران المبين.

رأس الحكمة مخافة الله:

وهكذا فان القرآن هو ينبوع الحكم ومنهلها، ولعل زبدة هذه الحكم هي «مخافة الله» كما يقول الحديث الشريف: «رأس الحكمة مخافة الله»، وهنا يتساءل الانسان، كيف اصبحت مخافة الله رأس الحكمة كلها؟

الجواب هو ان الفضائل لما كانت تتدرج ويتصل بعضها ببعض، فانها في تدرجها وتواصلها هذا تكون كهيئة الهرم؛ اي انها

تتدرج من القاعدة حتى تبلغ القمة، وهذه القمة هي الايمان بالله ومخافته ــ عزوجل ــ ،ويمكننا ان نصور الايمان والتقوى التي هي مخافة الله ــ تعالى ــ بالنهر العظيم الذي تترابط روافده، ويتصل بعضها ببعض حتى يكون هذا النهر، والفضائل هي بمثابة تلك الروافد المتصلة والمترابطة مع بعضها.

وهكذا فان مخافة الله ــ تعالى ــ هي حقيقة ومظهر الايمان، ولا معنى للايمان بدون المخافة والتقوى، فالذي يؤمن بالله لابد ان يخافه ويتقيه من خلال الامتثال لاوامره والاجتناب عن نواهيه، ومن هنا كان الايمان رأس الحكمة، ذلك لان الانسان يعيش بطبيعته حالتين لا ثالث لهما؛ حالة الذات او الهوى، وحالة الاهتداء بالحق؛ أي ان امام الانسان في كل حركة وسلوك بابين لابد من ان يختار احدهما ليدخل منه؛ اما باب الهوى الذي يهبط به الى الاسفلين، واما باب الحق الذي يرفعه الى درجة الصالحين.

الانانية مصدر الرذائل :

والحق هو اطار الفضائل جميعا، واتباعه يعني الولوج في عالم الفضيلة والسعادة الروحية، في حين ان الهوى والانانية هما المنزلق الى الرذائل والمعاصي والفسوق، واتباعهما يعني السقوط، والشقاء، والفوضى، والضياع.

وهكذا فان الانانية، والانطواء على الذات، والتحرك في

اطارها وحسب كل ذلك يعني ان الانسان يحبس نفسه في سجن مغلق، لان الذي يتحرك بدافع الانانية وحب الذات لا تجده يحسب للاخرين حسابهم، ولا يهتم الى ما لهم من حقوق عليه ولو كانوا اقرب الناس اليه، بل انه قد يرتكب العدوان على حقوقهم من اجل ضمان مصلحته، ومنافعه الشخصية، ولو تطلب ذلك التوسل بالاساليب الملتوية فلا وازع له، ولا شيء يردعه عن تحقيق مطامح الانا، ومشتهيات الذات إلا إذا خرج من هذه الزنزانة الى رحاب الإيمان.

والايمان بحقوق الاخرين يعني الايمان بالخلق ـ تعالى ـ فهناك الحقوق المتبادلة بين كل الكائنات، والتي بمراعاتها يسود التنظيم والانسجام في الحياة، فلابد من مراعاة حقوق الارض، والنبات، والحيوانات، والمياه، والثروات، وحقوق الاخرين فيها، فالايمان بالاخرين، وبالموجودات والكائنات الحية ينبع كله من المصدر الاول للايمان، الا وهو الله ـ تبارك وتعالى ـ رب الكون والوجود.

فالذي لا يؤمن برب الارض والسماء لا يؤمن بالارض والسماء، والذي لا يؤمن برب الناس، لا يؤمن بالناس، لذلك كان الايمان بالله ـ تعالى ـ اصل كل ايمان، فالذي يؤمن بالله يؤمن بداهة بكل قيمة ومثال في الحياة.

ومن هنا كانت اعظم مصائبنا، وخسائرنا جهلنا بالقيمومة الالهية، وعدم معرفتنا بالله ـ سبحانه وتعالى ـ، فنحن قد نلهج

باسمه ولكننا لا نعيش عمق المعرفة بصفاته، واسمائه؛ فلا نعرف معنى علمه الغيبي الازلي، وانه المليك المقتدر، ولا ندرك معنى ان بيده كل امر، فنحن نردد قول «ياالله»، ولا نحاول ان نفهم ما في هذا الاسم المقدس، والكلمة العليا من ابعاد وآفاق غزيرة في المعنى والقصد.

وعلى هذا فان الايمان بالله، وخشيته، ومعرفته، كل ذلك يمثل رأس كل حكمة، وبالتالي رأس كل فضيلة، فمخافة الله هي الحكمة الاولى، وعنها تنحدر سائر الحكم.

ان الوجه الحضاري للحياة يتمثل في ان تؤطر بالحرية والكرامة والاستقلالية، فمن اجل بلوغ معالم الحضارة في الحياة لابد للانسان من ان يتصرف، ويتحرك في حياته من منطلق الحكمة والوعي، ويتخلق بالاخلاق الايمانية التي تمليها عليه القيم، والمفاهيم الرسالية كي يبلغ هدفه الحضاري؛ اي الحياة الحرة، الكريمة، المستقلة، والا فان مصيره ان يبقى على حالة التخلف، والاضمحلال، والتبعية للاخرين، وخضوعه لسيطرتهم.

ولكي يتحرك الانسان نحو الاهداف الحضارية لابد من ان يعي سنة التغيير ويعمل بها كما قال ـــ تعالى ـــ: **«ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم»**[1]، فلكي نصبح اناسا حضاريين سائرين في

---

(١) الرعد/١١

ركب التقدم و الازدهار، ولكي نعيش احرارا بيدنا اسباب القوة، لابد ان نتحرك ، ونعمل ، ونغير ما بانفسنا بالشكل الذي لا يدع الاخرين ان يسيطروا على مقدراتنا ، ويفرضون انواع الهيمنة علينا ؛ كأن تكون هيمنة فكرية ، او ثقافية ، او اجتماعية ، او اقتصادية وغير ذلك .

مفردات برنامج التغيير في القرآن :

وبرنامج التغيير هذا نجده في القرآن الكريم بما يرسم لنا من خطوط تقودنا نحو الحضارة وهي :

التوكل وروح الاقدام :

١ ــ لعل في مقدمة الوصايا والصفات التي ينبغي للمؤمنين العمل بها هي صفة التوكل على الله ، وقد أكد القرآن الكريم مرارا ، وركز على هذه الصفة الايمانية التي تسمو بالمؤمنين نحو قمة العزة والكرامة والاستقلالية في الحياة ، ومن ذلك اقواله ــ تعالى ــ :

«ومن يتوكل على الله فهو حسبه» (١)

«وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين» (٢)

---

(١) الطلاق/٢

(٢) التوبة/٥١

«ان الله يحب المتوكلين»[1]

والتوكل على الله ـ عزوجل ـ معناه ان الانسان عندما يتحرك في مسيرته لبناء صرح الحضارة الالهية، فانه لا يهاب في مسيرته هذه ولا يخشى احدا غير الله، ولا يخاف في ذاته لومة لائم، وللأسف فاننا ـ نحن المسلمين ـ قد ولدنا، وربينا، ونشأنا في دوامة من الحذر والخشية، فنحن نكاد نخشى كل شيء؛ الظلام، وظواهر الطبيعة، ونتوهم الاوهام، ونعيش هواجسها، ونهاب ونرهب كل عارض جديد علينا.

وبدلا من ان يبدد الآباء هذا الخوف، ويزيلوا من اذهاننا تلك الاوهام، فانهم عززوا، وكرسوا معاني الخوف في عقولنا، فتطبعنا عليه، حتى اصبح وكأنه طوق حديدي يكبل اعناقنا، اما القرآن فقد عمل على تبديد هذا الخوف، ومعالجته في وصاياه وارشاداته التربوية من خلال التوكل على الله ـ تعالى ـ، لان الذي يتوكل عليه ـ سبحانه ـ سوف لن يخشى شيئا سواه.

ان للانسان نوعين من ردود الفعل عندما يواجه موقف صراع يبعث في نفسه حالة الخوف؛ فأما ان يكون شجاعا، فيداهم ويهاجم، واما ان يكون جبانا فيداهن ويجبن، والموقف الشجاع هو موقف التوكل على الله، اما الموقف الجبان فهو موقف ذلك الانسان

---

(١) آل عمران/١٥٩

الذي يعيش حبيسا لهواجس الذات، ضعيف الايمان، ومثل هذا الانسان لابد وان ينكسر، وينهزم، ويسقط حين يهرب من ذلك الموقف لانه سيصبح ضحية للمهاجم الذي يتعقبه يمنة ويسرة، وفي هذا المجال يقول امير المؤمنين(ع):

«ما قاتلت احدا الا واعانني على نفسه».

فالانسان ــ اذا ــ سوف يربح المواقف الكثيرة اذا ما تحلى بالشجاعة النابعة من روح التوكل، وبالعكس فانه سينهزم، ويخسر كل موقف ومعركة اذا كان يعيش هاجس الخوف والتردد الذي مصدره حب الذات والانانية، فالرجال يعرفون بالمواقف ورب كلمة تقود الانسان الى الجنة، ورب اخرى تهوي به الى جهنم، ولعل اشجع مواقف المتوكلين قول كلمة الحق ولو عاد ضررها على القائل، والافصاح بالحق امام الجائرين الذين يكرهون سماع كلمة الصدق والحق، ويحاربون اهلها، كما جاءت الاشارة الى ذلك في الحديث الشريف:

«إن افضل الجهاد كلمة عدل عند امام جائر».

وللأسف فان اغلب الناس يعيشون اجواء الخشية والخوف، وفي مقدمة ذلك الخوف من الجهر بكلمة الحق، ومن النتائج المترتبة على التصريح بها، وللامام علي(ع) كلام جميل في هذا الصدد يقول فيه: «الا وان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان اجلا، ولا يقطعان رزقا».

ومن هنا ينبغي للانسان المؤمن ان لا يتردد في اطلاق كلمة الحق، ولا يخشى عواقبها، بل ان الله ــ تعالى ــ سوف يسدده في امره ان هو افصح بها دون ان يخشى لومة لائم.

ومن هنا نتبين ان روح الشجاعة والتحدي النابعين من التوكل هما سر الفلاح في الحياة، ولعل اغلب حالات الفشل والاحباط التي يصاب بها الناس في حياتهم سببها الخوف والتردد اللذان يملان جوانحهم، فلا تجد لديهم روح الشجاعة التي تجعلهم يقدمون، ويقتحمون المواقف، ويمضون في السعي نحو ما يطمحون اليه، ولو انهم جربوا الاقدام والمضي دون خوف وبعد التوكل على الله ــ تعالى ــ، وقاوموا المعارضة الاجتماعية للمسوا بأيديهم النتائج الايجابية، والنجاح في اقدامهم.

استشارة ذوي الروح الشجاعة:

٢ ــ والمعارضة الاجتماعية هي حصيلة روح الجبن، والتردد، والخوف المعشّشة في المجتمع، فتجعله يتعامل مع المواقف المختلفة من خلال مفردات الهروب والفشل والانطواء، وان اولئك الذين ينصحونك بعدم الاقدام والمبادرة انما هم اعداؤك من غير ان تشعر انت، ومن غير ان يشعروا هم ايضا، فانت لا تشعر وهم لا يشعرون انهم يعملون من خلال نصح كهذا على تحطيم ذاتك وشخصيتك.

ومن جميل الاشارات القرآنية الى هؤلاء وامثالهم ما جاء في سورة

الناس عندما يصفهم القرآن بـ«الوسواس» في قوله ــ تعالى ــ : **«...من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس»**، فهذا هو عملهم الذي يوسوسون من خلاله في صدور الاخرين بأن يقولوا لهم: لا تفعلوا، لا تقدموا، تجنبوا، احذروا.. وما الى ذلك من عبارات التثبيط والاحباط، فلا همّ لهم سوى بعث الخوف والتردد في قلوب العاملين.

والوسواس يأتي من طريقين؛ من الداخل، ومن الخارج، فالذي يأتي من الداخل هو هاجس الخوف والتردد الذاتي الصادر من قلب الانسان، ونفسه الامارة بالسوء، واما ما ينفذ من الخارج فيتمثل في التثبيط الاجتماعي على يد اولئك الذين يحيون هاجس الخوف، فيخافون، ويخيفون غيرهم.

ولاجل ان يتخلص الانسان من مطرقة الخارج، وسندان الداخل ينبغي عليه ان يتوكل على الله ــ تعالى ــ، ويقاوم الوساوس بنوعيها؛ اي النفس الامارة بالسوء، ووسوسة الاخرين الذين نهت الاحاديث والروايات الشريفة عن استشارتهم في الامور لانهم يتحدثون وينطقون عن الشيطان، وقد نهت الاحاديث استشارة الجبان والبخيل.

عدم تهويل الاخطاء البسيطة:

٣ ــ ينبغي على الانسان المؤمن ان لا يهول على نفسه القضايا

والامور، فاذا اردت ــ مثلا ــ ان تصبح خطيبا، فلا تحدث نفسك بما يجعلك تتردد، وتفشل كالخوف ــ مثلا ــ من التلعثم، والخطأ، والخجل عند الوقوف امام الحضور، بل ابدأ هذه التجربة الجديدة بخطواتها الاولى حتى تصل الى المرحلة النهائية، ولامير المؤمنين(ع) في هذا المجال كلمة معبرة يقول فيها: «قرنت الخيبة بالهيبة».

استقلالية الشخصية:

٤ ــ ان المؤمن يجب ان لا يكون في عمله مقلدا للاخرين ممن هم في مستواه الفكري والعقلي بل ينبغي عليه ان يربي نفسه على الابتكار والابداع، ويكون مستقلا في شخصيته، وان لا يعمد الى تقليد الاخرين الا من باب الاقتداء الحسن، فكثيرون هم الذين فشلوا في اعمالهم، ونشاطاتهم بسبب تقليدهم للاخرين، فالتقليد يفقد الانسان احيانا قابلياته وقدراته الذاتية في العمل، في حين انهم لو كانوا قد عملوا على تطويرها لنجحوا وتقدموا.

وهكذا فان الانسان الناجح هو من يمتلك الثقة الكاملة بنفسه، والقادر على تنمية مواهبه، فهو لا يقلد الاخرين ولا يحاول ان يجعل من نفسه صورة طبق الاصل عنهم، بل يكون نسيج نفسه فحسب.

مقاومة الاحباط:

٥ ــ يجب على العامل ان لا يدع مجالا للاخطاء ان تثبط

عزيمته، فيخيب سعيه نتيجة خطأ او خطئين يقع فيهما، فالخطأ يجب ان لا يكون مصدر احباط ويأس وفشل يبعث على الانطواء والتقاعس والتراجع، وبالتالي يتحول الى عامل في تحطيم شخصية الانسان، بل ليكن الخطأ خطوة تجريبية في حياة الانسان المؤمن، اما اذا تكرر هذا الخطأ فحينئذ يجب ان يلام عليه هذا الانسان لقول الرسول (ص): «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

المنهج القرآني والعمل الرسالي

هناك مسلكان يسلكهما التالون لكتاب الله العزيز في فهم وادراك المعاني القرآنية ؛ فمن هؤلاء من اذا تلاه هبط بمعانيه السامية ، ومفاهيمه القيمة النيرة الى المستوى الذي يروق له في الفهم والادراك ، في حين ان اولئك المتبصرين الباحثين عن الحقيقة يحاولون حين تلاوتهم للقرآن الكريم الارتفاع والسمو الى مستوى بصائره وحقائقه .

ولذلك كان من الطبيعي ان يحدث بون شاسع ، وهوة عميقة بين رؤية وتفكير ومنهجية كل من هذين الفريقين ، وهنا نتساءل : ايما السبيلين احق بالسلوك ؛ انهبط بمفاهيم القرآن وقيمه ونجرها الى ما يحلو لنا وما نهواه من التفسير أم نرتفع نحن الى مستوياتها ؟

وبالطبع فان السلوك الثاني هو الاحق بالاتباع ، لان أتباع الفريق الاول يسعون جهد امكانهم لتأويل معاني القرآن ومفاهيمه

حسب اهوائهم وميولهم، فهم بعملهم هذا يضلون عن الجادة، ويوغلون في ضلالهم وغيهم وربما يبقون على حالتهم هذه الى نهاية حياتهم، في حين ان اولئك الذين لا يستجيبون لاهوائهم، ويعملون على اماتتها من خلال مخالفتها فانهم انما يرتفعون بذلك الى مستوى الفهم الحقيقي لكتاب الله، وبالتالي فانهم يرتفعون في سلم الكمال الى الدرجات العلى في دنياهم واخرتهم.

والقاريء الحقيقي للقرآن كلما تلا آية وردد ذكرا سمى وارتقى درجة من درجات الكمال، واخرى من درجات الجنان بين كل درجة والتي تليها كما بين السماء والارض، فذلك السمو العظيم الذي يحظى به المؤمنون في روضات الجنان انما هو نتيجة ارتفاعهم وسموهم في هذه الدنيا بتلاوة آيات الله ــ تعالى ــ والاندماج الروحي والعملي بمعانيها الشريفة؛ فالآية في كتاب الله هي في نظر المؤمن معراج له في هذه الدنيا نحو الكمال، في حين ان ذلك الذي يقرأ القرآن ولا يفهم منه الا الظاهر، والمعنى السطحي فان تلاوته هذه سوف لا تتجاوز حنجرته، بل ان هناك من الناس من يقرأ القرآن وهو لا يؤمن به، فمثل هؤلاء يلعنهم القرآن كما جاء في الحديث الشريف: «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه».

الحقيقة القرآنية اعظم الحقائق:

ونحن حينما نتلو الآيات القرآنية التي تحدثنا عن الحقائق الكبرى

نجد ان من بين هذه الحقائق الحقيقة القرآنية نفسها باعتبار ان القرآن هو التجلي الاعظم لله ــ تعالى ــ، ومأدبته، والمعين الروحي الذي نهل منه، وهو النور الالهي الذي يتجلى لعباد الله، والحبل المتين، والعروة الوثقى بين الانسان وربه، فهو ــ اذن ــ الحقيقة الكبرى، والمنهج الاسمى.

وكم هو تافه، وغافل ذلك الانسان الذي يقرأ القرآن، ويعيش اجواءه، ويستمع اليه ولكنه في نهاية المطاف لا يقتبس ولو ومضة نور من هذا السراج الالهي العظيم، ولا يغترف ولو غرفة من نبع هذا الكلام الذي ليس فوقه كلام، فمثله كمثل ذلك العطشان الجالس على ضفاف رافد رقراق ينظر الى هذا الفرات العذب ولكنه لا يمد يده ليغترف منه ما يطفىء به ظمأه ويروي عطشه.

هذا في حين ان الانسان المؤمن يزداد وعيا وايمانا وادراكا كلما نظر في آيات الله، وكلما اعطى اذنا صاغية ليستمع الى آياته تتلى عليه، فمثل هذا الانسان يزداد حكمة، وتفقها للحقائق لما يستشعره من الخشوع في قلبه؛ هذا الخشوع الذي يتعاظم في كيانه وروحه بمرور الزمن، وكلما ازداد نضجاً في عقله.

تلاوة القرآن معين كل حكمة:

وهكذا فان تلاوة القرآن الحقة هي معين كل حكمة وعلم وحلم وتفتح في القلب المؤمن، وفي هذا المجال يروى عن الامام الرضا(ع)

انه كان يتلو القرآن ويختمه في ثلاثة ليال ، وكان(ع) يقول : «كلما قرأت القرآن ازددت علما ، ولو شئت لختمته في يوم واحد لكني أقف عند كل آية اين نزلت ، ولم نزلت ، وما تأويلها» .

وعلى هذا افلسنا نظلم انفسنا ظلما فاحشا عندما لا نعرج بها بالتدبر ، والتفكر والتمعن في آيات القرآن ؟ ربما لا يوجد من ظلم نفسه بقدر ما ظلمنا نحن انفسنا بهجرنا للقرآن ، فتركنا آياته ، وجعلناها ظهريا .

ولقد جاء في الايات الشريفة ان الناس في يوم الحشر ينظرون الى كائن يأتي في اجمل واحسن صورة ، فيسألون : من هذا ؟ اهو نبي مرسل ام ملك مقرب ؟ فيقال : كلا ، ثم يسير ويسير حتى يقف تحت العرش ليشفع للمؤمنين ، فتقول الملائكة : ان هذا هو القرآن ، انه شافع مشفع ، وماحل مصدق .

سورة (ق) والمعاني الجليلة :

ومن جملة السور القرآنية المباركة التي تتضمن المعاني الجليلة ، والاسرار الالهية الدقيقة ، سورة (ق) المباركة التي يقول ـ تعالى ـ في مطلعها : «**ق ، والقرآن المجيد * بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد * قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ**» .

ان هذه القاف المباركة لعلها تدل على ذات كتاب الله او ربما

على معنى آخر، ثم ان هذا التعبير الشيق الذي لا يوازيه تعبير اخر في البلاغة والوضوح هو التعبير عن تلك الحقائق والسنن الكونية التي استقرت بالجعل الالهي ، ثم سرت وجرت عبر التأريخ .

ولو قارنا هذا التعبير عن الحقائق والسنن الكونية بمجريات واحداث التأريخ ، وبحركة المجتمع ، وطابقناه مع ظواهر النفس الداخلية ، وظواهر المحيط الخارجي لوجدنا انه اروع التعبيرات عنها ، واكثرها انسجاما ومطابقة ، فالذي يتدبر التعابير القرآنية ، ويبحث في مكنوناتها وآفاقها ، ويتفقهها جيدا فانه في طريقه نحو استلهام الحكمة ، والاتصاف بالحلم ، والاستغناء بالعلم ؛ اي انه سيصبح حكيما ، حليما ، عليماً اقرب للصواب في رأيه من الخطأ ، وهو في صبره وحلمه بعيد عن الجزع والانهيار، وفي صلابته وشجاعته لا يعرف الهزيمة والخذلان ، والتراجع والاستسلام .

فالحياة تفيض بالعبر، والدروس ، والتأريخ مدرسة كبرى ، ومعلم خبير، ونحن لم نصل الى ما وصلنا اليه منقطعين ، ومنفصلين عن تلك المدرسة وهذا المعلم ، فلقد مضت خلفنا الآلاف من السنين كان خلالها أناس ، وكانت امم وصراعات ، ومعاناة تفوق ما نراه الان الاف المرات ، ومع ذلك فاننا عندما نصطدم احيانا بمشكلة او معضلة ما وخاصة من النوع الذي نفاجأ به اذا بنا نفر، وننهزم ، وربما ان البعض منا يكفر بالقيم والايمان ، وقد ينجرف الى الالحاد والكفر بكل ما انزل الله ــ تعالى ــ بمجرد ان يواجه ابسط فتنة .

والقرآن الكريم يشبه هؤلاء بالذي يمشي على حافة الطريق ، **فهو** اكثر تعرضا لخطر الانزلاق ، والسقوط لمجرد ابسط تعثر، او غفلة وخاصة اذا كان هذا الطريق جبليا فالسقوط من حافة الطريق في هذه الحالة يعني الوقوع في الهاوية والموت المحتم ، وفي هذا المجال يقول ــ تعالى ــ : **«ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان اصابه خير اطمأن به ، وان اصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والاخرة»**[1] .

ان مثل هذا الانسان يعيش ضمن اطر ضيقة ، وتفكير ساذج بسيط ، وهو اشبه بالطفل منه بالرجل ، في حين ان ذلك الانسان الواعي المدرك ، والعارف المتدبر في شؤونه ، وفي آيات الله ــ عزوجل ــ حين يتلوها ، فانه يكون ثابتا ، مستقرا مطمئنا كما يقول الامام الصادق(ع) : «المؤمن اشد من الجبل ، المؤمن اشد من الحديد ، ان الجبل ينال منه ، والمؤمن لا ينال منه» ، وصدق الامام في مقولته هذه ؛ فانك تستطيع بمعولك ان تنقص من الجبل باقتلاع صخوره ، وتعمل على هدمه بمرور الزمن ، ولكن المؤمن الحقيقي الصلب الارادة لا يتزعزع ، ولا ينقص منه ، ولا يعرف الجزع ، فكم صمد المؤمنون المجاهدون رغم ما تعرضوا له من الوان العذاب التي لا تطاق كي ننتزع منهم كلمة كفر واحدة ولكنهم ابوا حتى اخر رمق من حياتهم .

وليس هناك عذاب اشد من ذلك الذي تعرض له مؤمن آل

---

(١) الحج ١١

فرعون الذي كان وزيرا للطاغية فرعون، فقد كان هذا الانسان المؤمن على اتصال، وعلاقة رسالية صميمية مع موسى (ع) والمؤمنين من بني اسرائيل الرافضين لفرعون وحكمه، عندما انكشف امره اتوا به، وطرحوه ارضا، وربطوا يديه ورجليه باوتاد من الحديد، ثم شدوا على ظهره القصب بحيث عملوا من كل قصبة قضيبين حادين كالسكين، ثم راحوا يسحبون هذه القضبان، لتسحب معها قطعا من لحم ظهره، فينزف الدم، ويبلغ الالم مبلغه.

وكان البعض من المؤمنين ينشرون بالمناشير، والبعض الاخر يقرض بالمقاريض، ومع كل هذه الاساليب البشعة في التعذيب ظلوا صامدين، يذكرون الله وحده، ويطلبون منه المغفرة في تلك اللحظات، ويسألونه ان يرزقهم الجنة، ذلك لانهم كانوا على علم وبصيرة من ايمانهم، وذوي رؤية واضحة، ويدركون ان مسيرتهم الايمانية لابد ان تشهد مثل هذه الصعوبات والمعاناة، وانها لسنة تأريخية تلك الصراعات، وذلك الاحتدام المرير الطويل بين الحق والباطل، والعدل والظلم، والمعروف والمنكر، وبين كل المعاني المتناقضة.

الصراع سنة تأريخية:

وقد بينت لنا هذه الحقيقة الاحاديث الشريفة ومن بينها الحديث الذي يقول: «من ترك الحق ابتلي بالباطل، ومن ابتلي بالباطل لا

يؤجر على ما يفعل»، وقول امير المؤمنين(ع): «من لم ينفعه الحق اضره الباطل»، وعلى سبيل المثال فان اولئك الجفاة الذين انصرفوا عن مسلم بن عقيل، وتخلوا عنه، حتى تركوه لوحده في ميدان الجهاد مطلقين شعار «مالنا والدخول بين السلاطين»، هؤلاء الذين تركوا الحق ونصرة اهله ترى هل سلموا على انفسهم من السلاطين؟ كلا، بل هم انفسهم الذين تشكل منهم جيش ابن زياد، وخرجوا لقتال الحسين(ع)، فصدق قول ائمتنا(ع) فيهم: «من ترك الحق ابتلي بالباطل»، حيث قتل الكثير منهم على يد ابطال كربلاء، وحسبما تذكر لنا بعض الروايات فان ما من بيت من بيوت الكوفة الا ودخله العزاء.

اما الذين قتلوا في معسكر ابي عبدالله الحسين(ع)، فقد قتلوا بعزة وشرف واباء، وعلى بصيرة من امرهم، بعد ان ابلوا في قتالهم وجهادهم بين يدي الحسين(ع) بلاء حسنا، وثأروا لدينهم، فاصبحوا مخلدين في قلب التأريخ، اضحت قبورهم محج وملاذ الناس.

وهكذا فان الاستقامة والصبر، والثبات وغيرها من الصفات الرسالية التي كان يتصف بها الانبياء، والاوصياء، واصحابهم تمثل اهم الخصائص التي يجب التحلي بها عند الشدائد والملمات والفتن والمصائب، فيجب ــ اذن ــ ان نتمعن في التأريخ، ونتأمل تلك الصراعات؛ كيف كانت، والى اين آل بها الامر، ثم كيف انتهت بانتصار الاتقياء والمؤمنين والصالحين، وكيف نالوا خير الجزاء

وعظيمه؟، فان استلهام العبر من التأريخ ينفعنا في بناء المستقبل المشرق الزاهر.

والظروف الصعبة التي نمر بها هي حالة الاستثناء في حياة الامم، فلابد من زوالها، ولابد من انقراض الظلم، وذهاب الليل، ومجيء الصبح، ثم علينا ان لا نستعجل حصول هذا المطلب، فالسنن الالهية تعمل عملها، وربما يدركنا الاجل ونحرم من اشراقة ذلك اليوم، ولكن علينا ان لا ننسى ان الحياة لا تنتهي بموتنا وذهابنا، بل هناك اجيال قادمة هم اولادنا الذين سينعمون بالحرية والسعادة.

فالايام ـ اذن ـ هي محك الرجال، وهي التي تكشف عن معادنهم، وهي التي تميز ذوي العزائم الثابتة من ذوي الهمم الخائرة.

علينا ان لا نستعجل النتائج :

وللاسف فان البعض منا يتصور ان الثمار تنضج في ليلة وضحاها فيستعجل قطفها، فهم يريدون ان يتم كل شيء بهذه السرعة، ويريدون بلوغ الاهداف، وتحقيق الامال في وهلة زمنية قصيرة هي ساعة في عمر الامم والحضارات، ونحن نقول لهؤلاء الذين فقدوا صبرهم: لماذا تخططون للاهداف من خلال اطار ضيق، كأن تحصروها في زوال نظام متجبر معين، وتتجاهلون الافاق التي تمتد عبرها الاهداف؟ انتم اليوم تشاهدون هذه الصحوة الاسلامية الواسعة، والتوجه نحو الاسلام الاخذ في الاتساع يوما بعد اخر في

العراق، ولبنان، وفلسطين، ومصر، والاردن، والجزائر، وتركيا، وباكستان... فمن اين هذا كله يا ترى؟

اننا يجب ان لا ننسى ان حركتنا هي من اجل القرآن والاسلام، وهدفها بحجم الانسانية، وهذا العالم الرحب، فهو لا يقتصر على نظام وبلد معينين، والحديث الشريف يقول: «مابني مسجد الا في موضع عليه قطرة من دم شهيد»، وربما يشير هذا الحديث الى ان هذه المساجد، والقباب، والمآذن الشامخة التي تصدح ليل نهار بذكر الله ــ تعالى ــ هي حصيلة دماء الشهداء، وتضحيات العاملين الداعين الى الله، والقرآن الكريم يقول في هذا المجال: «**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز، الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور**»[١].

فلو لم يكن هناك صراع، ولم يكن من يذود عن الحق، ويجاهد ويضحي في سبيل الله لما كانت هذه المساجد وكل الاماكن المقدسة في العصور التي سبقت عصر الرسالة الخاتمة، فبتلك الدماء الزاكية، والتضحيات الجسام نشهد اليوم اقبال الناس على الايمان والدين في جميع انحاء العالم، ففي اوروبا يوجد اليوم ما يقرب من خمسة عشر

---

(١) الحج ٤٠ــ٤١

مليون مسلم صاروا يشكلون قوة وثقلا لا يستهان بهما، الامر الذي دفع واضعي السياسة الغربية الى البحث عن كل الوسائل والطرق التي يتصدون بها للمد الاسلامي الذي بات يهددهم حيث انتشار الصحوة الاسلامية بين الاوروبيين انفسهم، وليس ادل على ذلك من اعتناق الكثير منهم الاسلام وخاصة في اوساطهم الفكرية والعلمية بل وحتى السياسية والصحافية؛ ففي باريس وحدها اسلم خلال عام واحد خسمة عشر شخصا بين مهندس وطبيب وخبير.

ولو بحثنا في جذور ودوافع تأليف ونشر وترجمة كتاب (الايات الشيطانية) وتوزيعه في مناطق مختلفة من العالم وخاصة اوروبا، لاكتشفنا ان الغرب هو الذي دعم هذا الكتاب، ووقف وراءه ووراء مؤلفه المرتد بسبب انتشار الاسلام، وامتداد نوره واشعاعاته الرحيمة لانقاذ الانسانية المعذبة على هذه الارض.

المستقبل للاسلام:

ان معظم الشعوب بدأت تدرك ان ما هي عليه من ديانات ومعتقدات ما هي الا قناعات زائفة لم تعد علاجاً لارواحها، ودواء لامراضها الاجتماعية الفتاكة، ولا تلعب دورها في بناء السياسة والاقتصاد السليمين اللذين يضعان حدا للمآسي الانسانية وآلامها، كما ان تلك الاديان لم يعد بامكانها سد الفراغ الروحي الذي تعاني منه شعوب ما يسمى بـ(الحضارة الاوروبية) هذه الحضارة التي

اصبحت مرتعا خصبا للفساد، والانحلال الخلقي، وضياع المفاهيم والقيم الانسانية، فمن الطبيعي ان تتوجه تلك الشعوب الى الاسلام ورسالته المنقذة.

ان هذه الشعوب جوعى للقيم الروحية، والمفاهيم الانسانية، وبحاجة الى ما يوقف فيها هذا التوجه المادي والافراط فيه، وهذه الحاجة ليست مفروضة عليهم بل ان طبيعة الانسان نفسها طبيعة ايمانية، فالانسان مفطور على الايمان، والبحث عن الغيب، وقوى ماوراء المادة، ومما فطر عليه ايضا، فهو دائم البحث عن فلسفة هذا الوجود، وفلسفة حياته؛ لماذا ولد، ولماذا يعيش، ولماذا يموت؛ وهو حين لا يجد الاجوبة الشافية في ديانته، ولا يجد فيها ما يطفىء غليل ضميره الظامىء، فمن الطبيعي ان يبحث عن تلك الاجوبة في الاسلام والقرآن، الامر الذي يدفعه الى ان يترك ديانته ليعتنق الدين المنقذ الذي فيه دواء الروح، وعلاج النفس، وراحة الضمير، الا وهو الدين الاسلامي.

ونحن نسمع في هذه الايام باخبار الحجاب والمحجبات في المدارس والجامعات الاوروبية، وكيف ان بعض الساسة الاوروبيين بدؤوا يستسلمون للامر الواقع، ويرضخون لمطالب المسلمين هناك كما حدث ــ مثلا ــ في فرنسا رغم الايادي الصليبية والصهيونية التي تحاول الضغط على المسؤولين الاوروبيين ليحولوا دون انتشار هذه الظاهرة، وهذه الامواج الاسلامية الممتدة، وعلى سبيل المثال فان

احدى الفرنسيات المسيحيات اسلمت، وكانت تعمل مدرسة في احدى المدارس، فلبست الحجاب، ودخلت فيه المدرسة، فما كان من ادارة المدرسة الا ان اخطرتها بأن مظهرها الاسلامي هذا سيعمل على افساد اخلاق التلاميذ، فالافضل لها ان تدع الحجاب جانبا، والا فانهم سيستغنون عنها، فكان موقف هذه الاخت التي اسلمت عن قناعة وايمان ان تقبلت قرار الطرد مفضلة الاسلام وعفافه على الوظيفة.

وبعد، فهذا هو فعل المد المقدس، والصحوة المباركة التي اخذت تنتشر حتى في اعماق اوروبا، وبدأت تهدد قلاع الماسونية، وحصون الصليبية والصهيونية التي تثمل بؤر الفساد والعدوان اللذين يصدران الى البلدان المستضعفة. ان هذه الصحوة التي يعيشها المسلمون، وشعوب العالم المستضعفة هي بفضل تلك التضحيات والدماء التي سفكت على طريق الجهاد الشائك.

التاريخ مدرسة كبرى:

وهكذا فان التأريخ هو مدرسة كبرى تتجلى فيها العبر، ويستلهم منها ما ينفعنا في العمل والحركة والانطلاق، والذي يدرس في هذه المدرسة، ويتتلمذ على يد هذا المعلم الخبير فمن المستحيل ان يصبح عرضة للاهتزاز، بل ان المصائب لا تهزه والمعاناة والصعاب، والمعضلات الطارئة والظواهر السلبية التي يمر بها في حياته لا تنال من

عزيمته ، بل هو يسمو فوق كل ذلك ، فعندما تعترضه المشاكل يعمل على تحليلها ، واعطائها حجمها وقياسها ، وما يناسبها من الاهتمام ، ثم يعمل على علاجها ، وتلافيها بقلب مطمئن ، واعصاب حديدية .

هذا في حين ان ذلك الذي لا يعير اي اهتمام للتأريخ ، ولا يستلهم من عبره فانه سينهار امام كل مشكلة جديدة ، فلا يعرف كيف يتصرف ازاءها ، وكيف يعالجها ، وهذا الموقف من الاخطاء الكبيرة ذات الاثر السلبي العميق .

اما كيف نقرأ التأريخ ، ونتتلمذ على يده ، فيتم ذلك من خلال قراءة القرآن وتلاوته حق التلاوة ، والتدبر في آياته ، ومعانيها الجمة الواسعة ، وقصصه الخالدة التي تبين السنن الالهية الثابتة ، وخلاصة القضايا المختلفة في كافة مجالات حياتنا سواء على المدى القريب ام البعيد .

القرآن منهج التكامل الانساني

على الرغم من ان الانسان خلق من المادة فإن روحه التي هي الاقوى والاشد انما خلقت من مادة لطيفة، وان من طبعها الحركة، فتكون طبيعة الانسان وفطرته الاولية هي الحركة الدائبة باتجاه التكامل، ومن هنا يقول ـ تعالى ـ: «**لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم**»[1].

قابلية التكامل في فطرة الانسان:

لقد خلق الله الانسان واودع فيه قابلية التكامل والعروج، ولكن على الرغم من ذلك نرى ان كثيرا من الناس يهبطون نحو الحضيض: «**ثم رددناه اسفل سافلين**»[2] حتى يصبح هذا الانسان

---

(١) سورة التين /٤

(٢) سورة التين /٥

الذي خلقه الله ليجلس في محضره الاقدس، ويكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وليكون موضعا لقدرة الله وارادته ومشيئته المطلقة كما يصرح بذلك الحديث القدسي؛ «عبدي اطعني تكن مثلي تقل للشيء كون فيكون»، هذا الانسان نراه في بعض الاحيان يتردى الى الحضيض حتى يصبح حطب جهنم، فاذا كانت في ضميره فطرة التقدم والتكامل فلماذا الانتكاس والهبوط الى الحضيض؟

جوابا على ذلك نقول ان محرك التقدم متوفر عند الانسان، ولكن قد تترسب رواسب في محركات هذا التقدم، وفي هذا المجال يمكن ان نشبه الانسان بالطائرة، ونشبه روحه وضميره وتطلعه الى السمو والكمال بمحركات هذه الطائرة، فهذه المحركات قد تترسب فيها المواد الاضافية فتصبح محركات غير فاعلة، وبحاجة الى ما ينظفها ويطهرها ويهيئها للعروج بالطائرة.

الرواسب التي تمنع تقدم الانسان :

وهكذا الحال بالنسبة الى (محركات) الانسان المعنوية فانها ايضا بحاجة الى صيانة وتنظيف، بحاجة الى تزكية وتطهير، وقبل ان نبين ما يزكي هذه المحركات، وما يطهر نفس الانسان، ويعطيه زخم التقدم والتكامل نطرح السؤال التالي: ما هي الرواسب التي تدخل في عجلة التقدم عند الانسان فلا تدعه يستمر في مسيرة التقدم؟

الجواب؛ انها الوان شتى من الرواسب منها اليأس الذي يحجب

الانسان عن رؤية مستقبله، فيقول؛ انا ولدت انسانا مستضعفا، والمستكبرون احاطوني بأساليبهم الماكرة وبأرهابهم، واليد التي لا استطيع ان اقطعها فعلي ان اقبلها! مثل هذه التبريرات هي تعبير عن حقيقة في نفس الانسان، وهي حقيقة اليأس من اختراق حواجز الحياة، والتقدم الى التكامل؛ وحتى اذا انبعث فينا نور الامل للحظات عند سماع القصص والبطولات التي تبعث على الامل، الا ان هذا النور سرعان ما ينطفىء، وسرعان ما نبرر بأسنا بقولنا: أين نحن من اصحاب تلك القصص والبطولات، واين الثرى من الثريا ؟! وهكذا يسارع اليأس الى قلوبنا ليمنع محرك الطموح من ان يتحرك في نفوسنا.

دوامة التساؤلات الحائرة :

الراسب الاخر من رواسب الجمود ان يطرح الانسان على نفسه مجموعة من الاسئلة الحائرة المضطربة كقوله: ثم ماذا ؟، وماذا سأصبح ؟ ومن يقول ان هذا الكلام صحيح ؟ ومن خرج من قبره لينبئنا عن الموت ؟ ومن اين جئنا والى اين نحن نسير؟ وكيف اخترنا طريقنا ؟ ومن قال ان هذا الطريق صحيح ؟ ومن الذي يثبت ان هناك شيئا وراء عالم الفكر؟

مثل هذه التساؤلات رددها من قبل السوفسطائيون واصحاب الخيال او المثال الذين قالوا بعدم وجود شيء وراء عالم الفكر، وان

كل ما هو موجود ما هو الا ظلال في المرايا وصور.

يقال ان الشيخ بهاء الدين العاملي كان في غرفة مغلقة مع شخص يقول بالسوفسطائية وعدم وجود اي شيء في الدنيا، وقد حاول الشيخ ان يقنعه ببطلان عقيدته ولكنه لم يكن يقتنع رغم ان الشيخ كان يعرض عليه الادلة تلو الادلة حتى انزعج منه الشيخ، فأخذه الى جانب من الغرفة كانت فيها مدفأة، فدفعه باتجاهها فوقع عليها ثم صاح (آه)، فسارع الشيخ قائلاً: ومن يقول انك موجود؟ ومن يقول ان هذه المدفأة موجودة؟ هذه كلها اكاذيب واخيلة، فلماذا تصرخ من الالم؟

مثل هذه الفلسفات والعقائد لا تمثل حقائق يطمئن اليها ولكنها مع ذلك تستطيع ان توقف التقدم عند الانسان وهي كثيرة.

وهناك تساؤل اخر مطروح في كل ذهن وهو من نوع التساؤلات السابقة، فقد يتساءل البعض قائلا: اذا كان الله موجودا، والعالم تحكمه العدالة الالهية فلماذا الحروب والكوارث، ولماذا الشقاء والطبقية، ولماذا ما نراه في العالم من مآس؟

مثل هذا التساؤل يوقف محرك التقدم عندنا، ويشغلنا عن التفكير الجدي في امور حياتنا، كما حدث للمسلمين في القرن الثالث الهجري حيث كانوا منهمكين بنقاشات ومجادلات لا طائل من ورائها من مثل؛ هل القرآن مخلوق ام قديم؟، فهذه مسألة ليست مهمة ولكنها شغلتهم عن بناء الحضارة الاسلامية، فقد كان من المفروض

ان تبلغ الحضارة والتكنولوجيا الاسلامية مستوى التقدم الذي بلغته الحضارة الانسانية بعد ذلك بعشرة قرون ، فاذا ما بحثنا عن اسباب التقدم ، وكيفيته ، واسلوب انبثاق الثورة الصناعية لرأينا ان عوامل نشوء هذه الثورة كانت متوفرة في القرن الثالث الهجري .

سبب تأخر المسلمين :

ترى لماذا لم يحمل المسلمون راية التقدم التكنلوجية في العالم ؟ السبب في ذلك هو انشغالهم بتلك التساؤلات العديمة الجدوى ، ترى ما هو شأنكم بالقرآن ان كان مخلوقا ام قديما ، اذهبوا وادرسوه وطبقوه على حياتكم وهذا هو المهم .

هذه الجدليات انتشرت انتشارا واسعا ، وما عرضناه كان جزء منها ، وهناك تساؤلات عقيمة اخرى تسبب توقف مسيرة تكامل الانسان كفرد وكأمة .

وهناك صفات سيئة تسهم هي الاخرى في ايقاف تقدم الانسان ومن ضمنها الحسد الذي يعني ان نتمنى زوال نعمة الغير وصيرورتها لنا ، كأن ترى احدا جالسا على المنبر فتقول ان هذا المكان مغصوب ، وان من المفروض ان اجلس مكانه .

وهكذا فان الحسد هو سبب من اسباب توقف تكامل الانسان ، فالانسان الحسود يأكل نفسه دون ان يدرك ، وهذه الصفة توقف محرك التقدم عند الانسان .

فاذا كان الانسان ممتلكا لمحركات التقدم والتطور والتكامل، واذا كان هناك ما يسبب توقف هذه المحركات، فماذا يجب عليه ان يفعل ليطهر نفسه، ويتخلص من اسر تلك العوامل لكي يصون طموحه وتطلعه، ويستمر في التقدم؟

الاجوبة نجدها كلها في القرآن الكريم الذي نزل ليجيب الانسان على تساؤلاته الحائرة، ولينظف قلبه من الرذائل كالحسد، والحقد، والتباغض والصفات الرذيلة الاخرى، ويبعث فيه روح التطلع والتقدم والانطلاق، ويبقيه في مسيرته التصاعدية.

هذا هو القرآن الكريم، ولذلك فان الذي لا يقرأه ولا يتلو آياته فانه سوف يبقى اسير تصوراته واوهامه وخرافاته واساطيره، ويبقى بالتالي متخلفا ذليلا متوغلا في الفساد والتبعية.

القرآن الكريم موجهنا نحو التكامل:

ان القرآن الكريم يضبط احاسيسنا وعواطفنا، ويوجهها بأتجاه السمو والتكامل، فاذا قيل لك بان فلانا قد مات فان هذا النبأ سوف يحدث في نفسك ثورة عاطفية، وهذه الثورة من الممكن لك ان توظفها في اتجاه التكامل، كما ان من الممكن ان تصبح سببا للانتكاس، فانت ــ كأنسان مؤمن ــ تقول عند سماعك هذا الخبر: انا لله وانا اليه راجعون، وهذه الكلمة من شأنها ان توجه ثورتك العاطفية باتجاه التقدم، لانك تنطلق من فلسفة واضحة، ومعتقد

ثابت ؛ فانت تعرف انك شبيه ذلك المتوفى ونظيره ، فلابد من ان تسير في نفس اتجاهه ، وهذا الاتجاه سيكون الى الله ، وانه ـ تعالى ـ سيحاسبك على اعمالك ، فتضبط نفسك ، وتشحذ ارادتك فتصبح بذلك افضل واتقى .

اما الانسان غير المؤمن فانه سوف يصاب بالكمد ، وتتراكم العقد عليه ، وتصبح نفسه قطعة سوداء ، وهذه السوداوية سوف تمنعه من التقدم والعمل .

وهناك في هذا المجال رواية طريفة عن الامام علي(ع) ، تقول هذه الرواية انه(ع) كان ذات يوم يتحرك باتجاه صفين ، ثم مر في طريقه على المدائن عاصمة الفرس قديما والتي تحولت الى اطلال خربة ، فبادر احد الذين كانوا مع الامام علي(ع) الى انشاد ابيات من الشعر منها هذا البيت :

جرت الرياح على ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد

فلفت الامام(ع) انتباهه الى ان هذه الكلمة لا تقال في هذه المواضع لانها لا تمنحك العبرة ، والقرآن الكريم هو احسن تفسيرا اذ يقول : **«كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين»**[1] ويقول ايضا : **«فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا**

---

(١) سورة الدخان /٢٥ـ٢٧

منظرين»[1].

نحن المسلمين ورثنا اليوم شلالا من الافكار المختلفة التي كانت نتيجة اساطير وخرافات وفلسفات وافكار نفذت في كيان الامة، وهذه الافكار هي بمثابة اغلال في ايدينا وقيود لا تدعنا نتحرك الى الامام، فقد تحولت الان تلك الروح التكاملية، وذلك الامل المشرق والنفسية الايجابية الى مجموعة من العقد المتراكمة.

والانسان بفطرته لا يولد هكذا بل انه بطبيعته يحب التقدم والكمال والتضحية والايثار، فهو يلتذّ بالاحسان الى الاخرين اكثر مما يلتذّ بالاخذ منهم، ولكن الكثير من المسلمين تحولت حالتهم الى ايد ممدودة تريد الاخذ دائما، وهذه حالة شاذة منكوسة، فالانسان بطبيعته يحب ان يملك الدنيا لكي يعطيها.

وبالاضافة الى ذلك فاننا اليوم نعاني من افكار متخلفة رجعية، افكار جاهلية لا تمت الى الاسلام بصلة، وعلينا ان نتخلص منها لكي نتحرر من التبعية وهذه الافكار السلبية من خلال العودة الى القرآن الكريم، والا فان رسول الله (ص) سوف يشكونا الى الله يوم القيامة بنص الاية القرآنية التي تقول: **«وقال الرسول يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا»**[2].

---

(١) سورة الدخان /٢٩

(٢) سورة الفرقان /٣٠

ترى اين نحن من القرآن ؟ وكم واحدا منا يحفظه ، ومن منا قرأ تفسير القرآن كله من اوله الى اخره ؟، معاذ الله ان نكون ممن تنطبق عليهم تلك الاية فيحاكمنا رسول الله (ص) في محكمة العدل الالهية يوم القيامة .

ان خلاصنا يكمن في القرآن لانه يمنحنا ما نحرك به اسباب التقدم في انفسنا ، وما ينظف فطرتنا ، ويعيدنا الى فطرتنا .

القرآن والحقائق الكبرى

من الملاحظ ان القرآن الكريم ينهج اسلوب الاشارة المفيدة في عرضه القصصي ، وقد تكون هذه الاشارة موسعة ، فيها شيء من التفصيلات عند اقتضاء الضرورة ، كما هو الحال في عرضه لقصة النبي موسى (عليه السلام) في اظهار تبليغه الرسالة ، ومقارعة الطاغوت ، واقامة حكم الله تعالى في الارض ، وكذلك الحال في قصة النبي يوسف (عليه السلام) .

غير ان القرآن الكريم دأب على العموم الى الاشارة الموجزة في كثير من الاحيان كما هو الحال في سورة هود ـ مثلا ـ .

وعادة في الاشارة الموجزة لا يهتم القرآن بتفاصيل الاحداث ، والاخذ بكل جوانبها ، صغيرها وكبيرها .. لذلك نجد المفسرين لازالوا مختلفين حول ابعاد قصص القرآن .

فعلى سبيل المثال نراهم يختلفون في آرائهم ونظرياتهم في مواطن

الاحداث وتفاصيل القصص كما هو الحال بالنسبة لعاد او ثمود، او من اين انطلق النبي نوح (عليه السلام) واين رست سفينته، ثم ما هي اللغات التي كانوا يتحدثون بها، وكيف هي صور حياتهم ومعيشتهم، وعاداتهم وطباعهم.. الكثير من هذه التفاصيل وغيرها قلما نجد القرآن المجيد يتعرض لها.

وبالطبع لا يخلو هذا الاهمال القرآني ــ لتلك التفاصيل ــ من حكمة ابتغاها الرب الجليل، ولعل من هذه الحكمة ان لا نتوجه الى تلك التفاصيل الجمة، فنهتم بها ونركزها في حياتنا، وننسى الحقائق الكبرى، التي هي الاساس في تبيان تلك القصص، من اجل الاخذ بدروسها، والا تعاظ بعبرها..

ولا يغيب عنا ان نفس الانسان عادة تميل نحو الهوامش، وتحبذ الترف الفكري، لان هذا ايسر سبيل للهروب من تحمل المسؤولية.

ولكن من اراد ان ينشأ من كيانه شخصية قرآنية، يجدر به ان يستلهم الدروس والعبر من قصص القرآن الكريم، كما يجدر به ان يستوعب الحكم والبصائر التي تفيض من تلك القصص الهادفة، بالاضافة الى ذلك ينبغي عليه ان يعتمد عليها في رسم منهجيته في الحياة، لتكون كل فصول حياته تشع بنور القرآن.

ولا يخفى ان بناء الشخصية القرآنية لا يمكن احداثها بالاعتماد على التفاصيل الهامشية، بل لابد من الغوص في عمق الحقائق الكبرى، لادراك محتواها، ومن ثم ترجمتها عمليا ومنهجيا في مجموع

النشاطات الحياتية التي نقوم بها .

ومن خلال التدبر في سورة هود المباركة ، تتجلى لنا عدة حقائق مهمة وكبرى ، تحكي سر الصراع الذي كان قائما ــ يومئذ ــ بين فريق يؤمن بالله تعالى ، واخر كافر جاحد ملحد .

ولعل اولى هذه الحقائق : هي مدى درجة العناد والاستكبار التي تعطي اولئك الذين تحدوا رسالات الله نزعة الجحود حتى بلغت بهم هذه الدرجة من العناد والاستكبار، انهم استعجلوا العذاب الالهي الشديد ، والذي دمروا به شر تدمير.

والحقيقة الثانية : هي مدى الثبات والاصرار والاستقامة الموسومة بالصبر والتضحية لدى رسل الله والذين آمنوا بهم واتبعوهم .

اما ثالث هذه الحقائق الكبرى : هي التي تخبرنا عن العاقبة ، وما انتهت اليه معادلة الصراع بين استقامة الرسل من جانب وعناد الكافرين وجحودهم بايات الله ورسالاته من جانب اخر.

هذه الحقائق الثلاثة تتجلى جميعا في الاشارة الجوهرية للقصص التي تطرقت لها سورة هود ، فمرة في قصة النبي نوح مع قومه ، واخرى قصة النبي ابراهيم مع طاغية زمانه وقومه ، وثالثة مع النبي هود واخرى مع النبي صالح وهكذا ..

وثمة فكرة ينبغي ان لا ننساها ، ان هذه الحقائق الكبرى التي اشار اليها القرآن الكريم في سورة هود ، وفي كل سور القرآن الكريم ، لم تكن حبيسة تلك الحقبة الزمنية التي غابت في عمق التاريخ ، وانما

ذكرت لاجل ان تخلق انعكاسات واضحة في كل جيل .

من هنا ينبغي ان نعي في كل عصر، وفي كل مصر هناك من يمثل دور النبي نوح او ابراهيم او هود او صالح .. (عليهم السلام) ، وفي مقابل هؤلاء الذين يمثلون جبهة الحق ، يقف الكفرة والمعاندين وجحدة الحق .

وكما دار بين ذلكما الفريقان من صراع ، كذلك اليوم يتجسد في بقاع الارض ، اذ ان سنة الصراع ، والحقائق الناجمة عنها قائمة تفعل فعلها ، فهي باقية ما بقي الدهر.

الفهرس

بصائر القرآن في الجهاد

بصائر الوحي ومسؤولية التطبيق

حكم القرآن في الحياة

الطبعة الأولى
١٩٩٤م / ١٤١٥هـ

دار الكلمة الطيبة بيروت. لبنان - ص. ب ٤.٦٥ / ١١٣